الفصل العاشر

الاستقالة أو الإقالة

- استقلت أول مرة لأنني رفضت أن أكون مجرد واجهة .
- كان على أن أمارس سلطتي كاملة و إما أن استقيل لصالح عبد الناصر .
- حصروني في بيتي وقطعوا اتصالاتي ومنعوا الصحف وأنا لا أزال رئيسا للجمهورية .
- أرادوا تحطيم صورتي عند الناس فهب الناس للتخلص منهم .
- هتف الجنود ضد عبد المحسن أبو النور : يسقط خنفس الخائن .
- التهامي يتهمني بالشيوعية والعمل مع خالد محيي الدين .
- عدت إلى الحكم على أكتاف الجماهير ودماء الاخوان المسلمين .
- عبد الناصر تسامح مع الانجليز والأمريكان مقابل أن يتخلصوا مني .

« بسم الله الرحمن الرحيم . .
« السادة أعضاء مجلس قيادة الثورة . .

« بعد تقديم وافر الاحترام ، يحزننى أن أعلن لأسباب لا يمكننى أن أذكرها الآن اننى لايمكن أن أتحمل من الآن مسئوليتى فى الحكم بالصورة المناسبة التى ترتضيها المصالح القومية . .

« ولذلك فإنى أطلب قبول استقالتى من المهام التى أشغلها ، وإنى إذ أشكركم على تعاونكم معى أسأل الله القدير أن يوفقنا إلى خدمة بلدنا بروح التعاون والأخوة »
بهذه العبارات المختصرة والحاسمة قدمت استقالتى فى ٢٢ فبراير ١٩٥٤ .

لكن قبل كتابة هذه الاستقالة جلست أستعرض كل ماحدث لنا فى خلال الفترة من قيام الثورة إلى الآن . . السلبيات والايجابيات . . ماكسبناه وماخسرناه . . وماكسبته البلد وماخسرته . . ولم أستطع أن أحدد بدقة نتيجة كشف الحساب . . فقد طردنا الملك ، لكن جئنا بالضباط إلى الحكم . . حققنا العدالة الاجتماعية لكن ظهرت المحسوبية . . واصلنا مشوار النضال لتحرير مصر ، لكن قضينا على الديمقراطية . . كنت مخلصا ولكن كان زملائى يدفعون كل شيء نحو الاستجابة لشهواتهم الخاصة والعامة ونحو الديكتاتورية العسكرية أيضا . . كنت أول رئيس لمصر ، لكنى رفضت أن أوصم بأكثر مما وقع . . وانتهيت إلى الإستقالة .
وقبل كتابة هذه الإستقالة وأجهت أعضاء المجلس بمنتهى الصراحة والشجاعة . .
واجهتهم بالأموال العامة التى سحبوها بلامبرر وبعثروها بلا حساب ، وطلبوا المزيد منها .
وواجهتهم باستغلالهم لنفوذهم . .
وواجهتهم بكل فضائحهم وعيوبهم . .
حتى أن جمال سالم سألنى :
ـ لماذا أنت غاضب علينا الى هذا الحد ؟
فقلت له :
ـ سأذكر لك انت وأسرتك واقعة واحدة تجعلنى غاضبا . . واقعة شقيقك الذى

طبع اسمه على بطاقة وكتب تحتها : « شقيق جمال سالم وصلاح سالم » ليسهل بها أموره ويكسب من ورائها الكثير .

وسألني آخر :

ـ هل هذا فقط ما يغضبك ؟

فقلت له :

ـ إذا كان هذا لايكفى ، فأنا غاضب من الأموال السرية التى تنفقونها على أغراضكم الشخصية وأنا غاضب على دولة المخابرات التى تكونونها الآن بإشراف بعض ضباط المخابرات المركزية ، وبعض الضباط الالمان الذين كانوا فى الجستابو النازى .

وبعد أن كتبت الاستقالة شعرت بالراحة والهدوء .

وعدت لبيتى لأنام مستريح الخاطر والضمير .

فهذه الاستقالة ستكون نهاية خلافاتى الجذرية مع الرتب الصغيرة من زملائى ضباط القيادة .

فقد كنت مقتنعا بأن أى جهاز حكم سواء أكان حربيا أم كان مدنيا ، لابد وأن يعتمد على علاقات واختصاصات ومهام واضحة ومحددة ، على كافة مستويات القيادة . . وكنت مقتنعا أن عبد الناصر ورفاقه لايريدون ذلك . . وكانوا فى أسلوبهم فى الحكم كمن يخلط الزيت على الماء .

إذا كان للقيادة الجماعية بعض المميزات فإن عيوبها أكثر . . وأخطر هذه العيوب أن يظهر شخص مثل جمال عبد الناصر ينجح فى تحريك المجموعة من تحت المنضدة ، لتصوت حسب أهدافه وأغراضه ، كما حدث .

ونتج عن ذلك أيضا تعدد السلطات وتضاربها وعدم التنسيق فيما بينها . . ففى ذلك الوقت ، كما قلت ، كانت مصر تحكم بواسطة ثلاث قوى ، أو ثلاث جماعات . . وزارة رسمية . . مجلس قيادة الثورة . . والمؤتمر المشترك والمكون من الوزارة والمجلس . . وكانت كل جماعة تتصور أن لها الحق فى اتخاذ القرار قبل غيرها .

وكرئيس للجمهورية . . وكرئيس للوزراء . . وكزعيم للثورة (كما هو منصوص عليه فى الدستور المؤقت) كان من المفروض أن أقود كل هذه

السلطات ، لكن فى واقع الأمر كنت لا أقود شيئا على الإطلاق . . وكانت القيادة مشتركة بين أغلبية أعضاء مجلس قيادة الثورة الذين سبقونى فى ممارسة سلطاتى .
ولم يكن أمامى إلا أمراً من أثنين :
إما أن أمارس سلطاتى كاملة .
وإما أن أستقيل لصالح عبد الناصر .
وأحسست أن من الأفضل أن أستقيل ، فقد كنت مسئولا وغير مسئول ، فى نفس الوقت ، عن كل صغيرة وكبيرة تحدث فى البلد .
وأنا لم أرفض أن أتحمل المسئولية ولكن بشرط أن أكون موافقا تماما على كل ما يصدر من قرارات . . لكننى لا أتحمل مسئولية أى قرار لم أستشر فيه ، ولم أوافق عليه .

إن عبد الناصر الذى كنت أحترمه ، كان شابا صغيرا ، ذو قدرات متميزة . . وقد اقترحت عليه أن أدير وأقود البلاد لعدة سنوات إلى أن يكتسب الخبرة اللازمة التى تمكنه من أن يخلفنى فى الرئاسة . . وأكدت له فى ذلك الوقت أننى سأكون سعيدا أن أستقيل من أجله ولصالحه . . وخيرته فى ذلك ، أو أن أستقيل حالا ، حتى لو أدى الأمر إلى خلق أزمة داخلية لأننى لم أعد أتحمل ، أو أتسامح عن الأخطاء التى يرتكبها أعضاء المجلس . .
ولم يختر عبد الناصر !
فقلت له :
ـ من الأفضل أن تقود المسيرة من الآن بدونى !
لم يكن لى سلطة تعيين أو فصل الوزراء بدون موافقة المجلس ، ومع ذلك كنت مضطرا لمساندة الوزراء سواء كنت موافقا عليهم أم لا !
وكنت مضطرا للتصديق على قرارات أركان حرب الجيش ، حتى التى صدرت دون استشارتى ، أو أخذ رأيى فيها .
وأنا لم أطلب سلطات مطلقة لى ولكنى ببساطة ، كنت أطلب الحد الادنى الضرورى لممارسة مهامى . . وكنت مستعدا لمناقشة المجلس فى أى قرار اتخذه . .

لقد كان عبد الناصر بحماس الشباب يعتقد أنه من الممكن أن يحول كل

معتقدات الشعب المصرى إلى الطريق الذى اخترناه نحن الضباط لتحقيق أهدافنا . . ولم يكن ليستطيع أن يحول أهدافنا إلى طريق الشعب المصرى . . لكننى بخبرة وحكمة الكبار كنت أعتقد أن أفكاره خاطئة وأننا فى حاجة إلى مساندة شعبية حقيقية . . وإن من الممكن تأجيل بعض الأهداف أو التضحية بها حتى لانفقد ثقة الشعب فينا .

كنت باختصار أعتقد أن نصف رغيف أفضل من لا شيء .

لكن عبد الناصر كان يعتقد أنه يجب أن يأخذ الرغيف كله .

وقد طال بى العمر حتى رأيت أن اعتقاده كان خاطئا ، وأن الانجازات الضخمة التى أقامها لم يكن لها أى أساس ، وكان من السهل هدمها والتضحية بها فى أيام .

فى اليوم التالى لتقديم استقالتى ، جاء لزيارتى فى بيتى جمال سالم وحسين الشافعى ، وطلبا منى أن أسحب الاستقالة . .

وعندما رفضت ، أصرا على اصطحابى لاجتماع فى مجلس قيادة الثورة الذى كان منعقدا فعلا فى مبنى مجلس النواب . . وبعد مناقشات طويلة بينى وبينهم وافقت على أن يبقى أمر الاستقالة سرا إلى أن أعود من السودان . . فقد كان مقررا أن أذهب للسودان مع صلاح سالم فى ٢٨ فبراير لحضور احتفال افتتاح البرلمان المؤقت هناك ، على أن يقرر المجلس خلال أسبوعين ، إما أن يقبل الاستقالة ، وإما أن يعترف بكامل سلطاتى .

وفى اليوم التالى عرفت أن المجلس غير رأيه . .

ففى ذلك اليوم لم يحضر اجتماع مجلس قيادة الثورة سوى أربعة من الست وزراء العسكريين . . ولم يحضر كل من عبد الناصر وصلاح سالم . . واستأذن جمال سالم والبغدادى بعد دقائق بحجة أنهما متعبان . . وتبعهما كمال الدين حسين وزكريا محيى الدين .

وعند مغادرتى قاعة المجلس للذهاب إلى مكتبى ، أحاط بى الصحافيون واستفسروا عن اجتماع بقية الأعضاء بدونى فى المقر الجديد لمجلس القيادة فى الجزيرة . . وحاولت أن أرد عليهم بلباقة . . لكننى أحسست أنهم لم ينخدعوا . . وأنهم يعرفون أن ثمة بوادر أزمة على وشك أن تحدث .

وعدت ألى بيتى . .

وقبل أن أذهب إلى فراشى ، طلبت من زوجتى أن تذكرنى فى الصباح لكى أطلب

سكرتيرى العسكرى إسماعيل فريد ، وكذلك صلاح الشاهد ، تليفونيا لأمر هام .

وفى الصباح استيقظت فى الساعة السادسة والنصف . . وأديت صلواتى . . وبعد نصف ساعة حاولت أن أتصل بإسماعيل فريد ، لكن التليفونين كانا معطلين . . وحاولت مع التليفون الثالث والأخير ، لكنه هو الآخر كان معطلا . . وهذا التليفون بالذات كان على اتصال مباشر بمجلس قيادة الثورة . . وفى هذه اللحظة أيقنت أننى وضعت تحت « التحفظ »

أرسلت خادمى « محسن » لكى يرى ما إذا كان الحرس الجمهورى فى مكانه أمام منزلى ، أم لا ؟ ، فجاءنى محسن مذعورا وقال :
- إن الحرس استبدل بخليط من المشاة والبوليس الحربى ، وأن الجنود أمروه وهم يشهرون بنادقهم أن يعود للمنزل ويبقى فيه !

وعندئذ أرسلت خادمى الثانى « بدر » لكى يشترى لنا بعض الكيروسين ، لأن مواقدنا خالية منه ، وكنا نريد إعداد طعام الإفطار للأولاد . . لكن لم يسمح له بالخروج . . كذلك لم يسمح للطاهى ، الذى كان يبيت فى منزله بالدخول .

وأرسلت إلى قائد البوليس الحربى مذكرة ، طلبت منه فيها أن يسأل مجلس قيادة الثورة عن ما إذا كان مسموحا للخدم بالدخول والخروج أم لا . . وما إذا كان من الممكن أن يذهب أولادى إلى المدرسة أم لا . . وبعد ساعة جاءنى الرد بالرفض . . لكن سمح لخادم واحد بالخروج والدخول بين الحين والآخر لشراء الحاجيات الضرورية لنا .

وفى ذلك اليوم منعوا عنى الجرائد . . وتمكنت بصعوبة من تهريبها . .

وفى ذلك المساء فتحت دفتر مذكراتى اليومية . . وأخذت أدون أحداث اليومين الأخيرين . . وبعد أن انتهيت من الكتابة ، صليت صلاة العشاء ، استعدادا للنوم . . وقبل أن أنام ، أقسمت بينى وبين نفسى أن أتحمل كل ما سيجرى مهما كان مؤلما وأن أقبل أى اتهام دون أن أدافع عن نفسى بكلمة واحدة . . لم أرد أن اعمق الخلافات لأننى كنت أرى أنه بمجرد أن تخمد ثورة زملائى يمكن أن أتفاهم معهم . . ثم أن الثورة أهم ، وليس مقبولا أن نعرضها لمتاعب أكثر بسبب خلافاتى مع عبد الناصر .

وفى ٢٥ فبراير أصدر مجلس قيادة الثورة بيان إقالتى :
وجاء فيه :
أننى طلبت سلطات أكبر من سلطات أعضاء المجلس ، وأن المجلس رفض ذلك لأنه خروج على نظامه المتبع منذ سنوات وهو أن أعضاء المجلس متساوون بما فيهم الرئيس .
وقال البيان :

« وبالرغم من أن اللواء نجيب عين رئيسا للجمهورية ورئيسا للوزراء ، ورئيسا لمجلس القيادة ، فقد أصر اللواء نجيب على طلب سلطات أوسع وأكبر من المجلس نفسه ، ولكننا رفضنا ذلك لكى نوزع السلطات توزيعا عادلا بين أعضاء المجلس .
وأضاف البيان :
« وقد طلب اللواء نجيب عدة طلبات محددة منها أن يكون له حق الاعتراض على قرارات المجلس حتى ولو كانت هذه القرارات قد أخذت بالاجماع . .
وكذلك أن يكون له حق فصل الوزراء والتصديق على ترقية أو فصل ضباط القوات المسلحة »
وانتهى البيان إلى إعلان القرارات التى اتخذها المجلس بالإجماع وهى :
« أولا : قبول الأستقالة المقدمة من اللواء أ . ح . محمد نجيب من جميع الوظائف التى يشغلها .
« ثانيا : يستمر مجلس القيادة بقيادة البكباشى أ .ح . جمال عبد الناصر فى تولى كافة سلطاته الحالية إلى أن تحقق الثورة أهم أهدافها وهو إجلاء المستعمر عن أرض الوطن .
« ثالثا : يعين البكباشى أ . ح . جمال عبد الناصر رئيسا لمجلس الوزراء . .
وقال :
« إن الثورة مستمرة وستستمر حريصة على مثلها العليا مهما أحاطت بها عقبات وصعاب والله الكفيل برعايتها فإنه نعم المولى ونعم النصير » .

وحاول البيان الاساءة إلى شخصى ، والتقليل من دورى فى الثورة ، والتأكيد على أننى اخترت قائدا للثورة على الرغم من أننى كنت بعيدا عن صفوفهم ، وأننى اخترت لهذه المهمة قبل قيام الثورة بشهرين ، وكان سر اختيارهم لى « سمعتى

الحسنة الطيبة » ، وأننى علمت بقيام الثورة فى ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ عن طريق مكالمة تليفونية من وزير الداخلية ، فتحركت إلى مبنى قيادة الأركان ، وأن جمال عبد الناصر وافق على ضمى إليهم وتنازل لى عن رئاسته للمجلس .

كانوا باختصار يريدون تحطيم صورتى فى عيون وقلوب الجماهير . . ويحولوننى من ثائر إلى فتربنة . . ولست فى حاجة الآن للرد على هذا الكلام . . فقد جاء الزمن الذى تولى عنى فيه كتاب آخرون هذه المهمة . . كما أننى سبق وشرحت بدقة متناهية ، علاقتى بالثورة من حرب فلسطين إلى حريق القاهرة . . ومن منشورات الضباط الأحرار إلى انتخابات النادى . . ومن تحديد الحركة إلى طرد الملك . .

وليس صحيحا أننى طلبت سلطات أكثر من السلطات العادية الممنوحة لرؤساء الجمهوريات والحكومات . . فمن الطبيعى على الأقل أن يكون الرئيس هو الذين يعين رئيس الأركان فى الجيش وأن يكون له الحق فى التصديق على تعيين وفصل الضباط . . كذلك فإنه من الطبيعى أن يسمح لرئيس الوزراء بالتصديق على تعيين وفصل كبار موظفى الدولة ، كما أن له الحق فى فصل الوزراء الذين يرفضون التعاون معه باخلاص .
وفى غياب مثل هذه السلطات فإنه من الصعب أن يحكم المسئول .

وأذيع بيان المجلس ونشر على الملأ . . فخرجت الجماهير تحتج عليه . . وانهالت البرقيات على المجلس ودور الصحف ترفض الاستقالة . .
واندلعت المظاهرات التلقائية الصاخبة فى القاهرة والأقاليم تؤيدنى ضد خصومى ، واستمرت ثلاثة أيام .
وتصور مجلس الثورة أنه يمكن تهدئة الجماهير الغاضبة بمزيد من التشهير . .
فقال صلاح سالم وزير الإرشاد القومى بتكليف من زملائه ، فى بيان أذيع فى الراديو يوم ٢٦ فبراير :

« ردا على آلاف الاستفسارات التى وردت من جميع أنحاء القطر ـ فى مصر والسودان ـ ومن كثير من أبناء الدول العربية الشقيقة يصرون فيها على طلب إيضاحات جديدة عن الخلافات التى نشبت بين مجلس قيادة الثورة وبين محمد نجيب ، ويتساءلون فيها لماذا صبر مجلس قيادة الثورة على هذه الخلافات طوال

عام أو أكثر ، ولم يحسم الوضع من البداية ، ولماذا خلق من محمد نجيب رمزا شعبيا آمن الشعب به رغم عيوبه التى كان يصححها المجلس ، ولماذا لم يصبر المجلس شهرا ، أو شهورا حتى تجتاز البلاد الظروف الدقيقة الحرجة التى تمر بها ، وكيف يستبعد رجل عزل فاروق وألغى الرتب وحدد الملكية وأقام مشاريع حيوية للبلاد ، وكيف يسد مجلس الثورة الفراغ الذى ملأه محمد نجيب الخ . . »

« ردا على هذه الاستفسارات أقول أن السبب الحقيقى لهذه الازمات ، وهى ترجع إلى يوم قيام الثورة وإلى الظروف التى أحاطت بها ، والأزمة النفسية التى ظل نجيب يعانيها ، ترجع إلى رغبته فى الانفراد بالسلطة والهيمنة على المجلس ، وبسبب هذا النزوع الملح نحو الانفراد بالسلطة وتحت هذا البند حدثت الآف المآسى يوما بعد يوم ، علم بها الكثير من الوف هذا الوطن ممن قابلوه وتكلم اليهم وأفاض ، كما علم بها الكثير من سفراء الدول الاجنبية ممن تكلم معهم عن أعضاء المجلس ، هؤلاء الذين حملوه من كرسيه فى رئاسة المشاة على اعناقهم وأرواحهم لينصبوه قائدا عاما للقوات المسلحة فرئيسا للثورة ورئيسا للوزراء فرئيسا للجمهورية . هؤلاء الأعضاء الذين جعلوا من أنفسهم حرسا خاصا له شهورا طويلة منذ قيام الثورة فكانوا إذا ماذهب إلى زيارة مدينة أو قرية يجلسون حول رفارف سيارته وكان رائدهم فى ذلك أن يحموا جسده بأجسادهم وليمت منهم من يمت ليعيش محمد نجيب . هؤلاء الأعضاء وعلى رأسهم جمال عبد الناصر الذين ظلوا حتى توقيع اتفاقية السودان يستخدمون الرقابة على الصحف لحذف اسم كل منهم ليكتب إسم نجيب فقط ، هؤلاء الأعضاء الذين كانوا يشقون له طريقه وسط جموع الشعب بأكتافهم وأيديهم كجنود من جنود حرسه . . » .

واستمر صلاح سالم فى بياناته المضحكة ، الكاذبة ، التى أنشرها لتكون دليلا منهم عليهم . . فقال :

« لقد ذكرت لكم من قبل أننا كنا مجبرين لقبول استقالة محمد نجيب لاخيرين ، وبلغ من حرج الموقف ، أن نجيب يطلب ردا قاطعا قبل سفره إلى السودان ـ استجابة لدعوة الحكومة السودانية لحضور حفل افتتاح البرلمان السودانى ـ فوصلنا إلى قرارنا الأول بانسحابنا إلى مراكزنا فى الجيش وتعلمون ماذا حدث من جراء ذلك فقد بلغ الى حد ان ضباط الجيش انذرونا ان لم نبق فى مراكزنا ونستمر

في تحقيق غايات الامة ومطالبها فانهم سيتوجهون من دورهم لقتل محمد نجيب واحضارنا من منازلنا بالقوة لتسلم زمام الامور ولو رغم ارادتنا . لقد كنا بين نارين حتى بلغ الامر بنا نتيجة لهذا الموقف الحرج وهذا الارهاق المستمر والضغط المرير على اعصابنا ان اظلمت الدنيا كلها فى وجوهنا ونحن حائرون بين امرين بغيضين لا مناص من اختيار احدهما » .

هل هناك بيان رسمى يمكن أن يضحك مثل هذا البيان ؟ !

إننى لا أسخر من البيان ولكن أقرر حقيقة ، قطعا سيصل إليها كل من يقرأه

واكبر دليل على ذلك ، وعلى كذب كل ما جاء فيه وفى غيره ، المظاهرات التى انفجرت فى الشوارع ، والجيش الذى انقسم على نفسه ، والمجلس أيضا .

فقد جمع خالد محيى الدين أنصاره من الضباط والجنود الموالين لى وتجمهروا فى ثكنات سلاح الفرسان ، واجتمع الفريق الآخر الموالى للمجلس فى مبنى القيادة وحاول بعضهم محاصرة سلاح الفرسان بمدافع الميدان ، لكن جمال عبد الناصر قرر الاستسلام لإيقاف الصدام الوشيك بين الجيش . . بعضه البعض .

وفى الحقيقة أنا لم أعرف كل هذه الأخبار فى حينها . . فقد كنت ساعتها معزولا عن العالم . .

وكان أول خبر عرفته عن كل هذه الأحداث ، قاله لى الملازم حسن صبرى من الحرس الجمهورى ، الذى كان يبيت تلك الليلة حول منزلى .

وجاء له عبد المحسن أبو النور ، الذى تولى قيادة قوة الحرس الجمهورى الخاصة بمنزلى ، بعد إجبار محمد رياض على السفر إلى أمريكا بدعوى أنه مريض ، وقال له :

- إن هناك اضطرابات تحدث الآن وسط القاهرة ، وأن قصر عابدين يتعرض للهجوم وعليك أن تذهب إلى معسكر الحرس الجمهورى فى الحلمية وتجهز القوة التى هناك للتحرك فورا وانتظر أوامرى .

وما أن غادر حسن صبرى مكانه حول منزلى ، حتى أمر عبد المحسن أبو النور جنود الحراسة بالتجمع ونزع سلاحهم ، ثم اعتقلهم ، واستبدلهم بقوة أخرى من المشاة والبوليس الحربى .

ثم استدعى عبد المحسن أبو النور ، حسن صبرى وطلب منه الانضمام اليه ، لكن الضابط الصغير رفض ، وحاول المقاومة ، فتعرض للضرب الشديد ، وتم

إيداعه السجن الحربى .
وبسبب هذه العملية حدث رد فعل عنيف بين ضباط وجنود الحرس الجمهورى ، فثاروا على عبد المحسن ابو النور وهتفوا بسقوطه قائلين :
ـ يسقط خنفس الخائن !
وكانوا يقصدون بذلك الضابط خنفس الذى خان عرابى أثناء قتاله مع الانجليز . وكادوا أن يفتكوا به ، حتى أمرت بإبعاده عن الحرس .

وكان ثمن هذه الخيانة أن فتحت الأبواب أمام عبد المحسن أبو النور حتى أصبح نائبا لرئيس الوزراء . . ولكن مصيره فى النهاية كان السجن على يد أنور السادات فى القضية التى عرفت بأسم قضية مراكز القوى .
وبعد ذلك . . كانت كل الأحداث تشير إلى عودتى . .

ففى فجر السبت ٢٧ فبراير ، قمت من نومى على صوت نقر على شباك غرفة نومى ، فطلبت من الطارق أن يحضر من الباب الأمامى . .

كانوا ثمانية ضباط شبان من سلاح الفرسان على رأسهم الصاغ خالد محيى الدين . .
وانتحى بى خالد جانبا وقال لى :
ـ إن المجلس قرر تعيينى رئيسا للوزراء .
وطلب منى أن أعود لمنصبى كرئيس للجمهورية !
وقال لى :
ـ لو قبلت فإن أعضاء المجلس الآخرين سوف يصوتون لصالحنا
وعلمت منه :

أنهم عقدوا فى سلاح الفرسان اجتماعا عاصفا حضره جمال عبد الناصر ، اعترضوا فيه على استقالتى ، وأصروا على عودة الديمقراطية فاقترح عليهم جمال سالم أن يعقد اجتماع عاجل لمجلس قيادة الثورة ، يعرض عليه اقتراحا بعودتى لرئاسة الجمهورية وتعيين خالد رئيسا للوزراء . . وهذا حدث فعلا .
فقلت له :
ـ سوف أدرس الموضوع بشرط أن يتعاون معى كل الزملاء كما كانوا من قبل .
وتركنى خالد ورفاقه ليعودوا إلى المجلس .

ولو سارت الأمور كما قال خالد لى ، فإنه سيذاع بيان بعودتى وبشروطى فى السابعة مساء . . وعندئذ سوف يحضر وفد لمرافقتى إلى القصر الجمهورى .

لكن ما كاد خالد يخرج ، وما كدت أعود لنومى ، حتى فوجئت بضيف آخر . .
كان هذا الضيف هو اليوزباشي كمال رفعت ومعه اليوزباشي داود عويس ، وقد طلبا منى أن أرتدى ملابس لأخرج معهما . .
وسألتهما :
ـ لماذا ؟
قال كمال رفعت :
ـ قرار مجلس الثورة ألغى !
فقلت :
ـ لكن خالد قال لى . . . .
فلم يسمعانى وأصرا على موقفهما ورفضا السماح لى بالاتصال التليفونى ، وكنت ساعتها تحت تهديد السلاح .

وخرجت معهما . . وأمام الحرس تعمدت أن أقف قليلا حتى يعرف أفراده أننى وضعت تحت التحفظ ، لكنهما دفعانى إلى العربة التى أسرعت بى إلى مبنى قيادة سلاح المدفعية بألماظة ، وفى داخل المبنى وضعت فى حجرة رطبة ، لاتدخلها الشمس ، وكان اليوم شديد البرودة ، وعندما طلبت منهما أن أجلس فى حديقة المبنى ، فى الشمس ، رفضا .

وعرفت رغم كل ذلك أن عددا كبيراً من الضباط قد تجمعوا فى سلاح الفرسان ، يطلبون إطلاق سراحى ، وأن هذا أزعج مجلس القيادة ، وأجبرهم على عودتى .
وتأكدت مما قاله لى خالد محيى الدين .
عند الظهر ، فوجئت باليوزباشى حسن التهامى ومعه خمسة من الضابط لاأعرفهم أمامى . .

قال لى ضابط المخابرات الشاب أيامها حسن التهامى :
ـ لقد اكتشفنا أن خالد محيى الدين ورفاقه الشيوعيين يدبرون انقلابا شيوعيا ، انت مشترك فيه .
وضحكت . .
وقلت :
ـ اقترح عليك أن توجه لى أيضا تهمة الخيانة العظمى وأن تطلق على الرصاص .
وأحس حسن التهامى بسخرية كلامى . .
فقلت له فى عنف :

- إن تصرفكم نحوى الآن يعد خروجا عن حدود الالتزام بمبادىء الثورة وأهداف الشعب .

فإذا به يتراجع ويقول :

- إنك لست محل شك على الاطلاق .

وأحسست ان من العبث الاستمرار فى الكلام معه .. فهو لايعرف ما يقوله .. وهو ضيق الأفق .. وهو يردد ألفاظا لامعنى لها .

لكنه قال فجأة :

- سنعود بك الى منزلك !

واقتادونى من باب خلفى ، إلى الصحراء ، البعيدة عن العمار ، والبعيدة عن المعسكرات ، خوفا من التجمهر أو اعتراضهم .. وفى البداية اعتقدت أنهم سوف يقتلوننى .. فقلت لهم :

- إذا كنتم تريدون أن تغتالونى فأنا لا أخاف الموت .. وقد عشت حياتى شجاعا وسأموت شجاعا .

لكننى عرفت أنهم يحاولون الابتعاد عن دخول معركة متكافئة بين المؤيدين لى وبينهم .

وقالوا لى :

- ستكون حرا بعد قليل .

وفعلا عدت إلى منزلى .

وبعد قليل حضر شمس بدران وأبلغنى أن مجلس القيادة قرر رفض استقالتى وقرر عودتى رئيسا للجمهورية .

ولم يزل هذا القرار المرارة التى ملأت قلبى بعد الاعتداء المتكرر على ، خلال تلك الساعات الماضية ، وممن ؟ .. من ضباط صغار فى عمر أولادى !

ولم اشأ أن يمر ما حدث لى بسهولة .. فطلبت من عبد الحكيم عامر أن يحاكم أولئك الضباط .

وقد سبق أن شرحت الأسباب التى أجبرت المجلس ، على عودتى ، فقلت :

« كان فى مبنى القيادة عندما اتخذ قرار عودتى ، تحت ضغط ضباط الفرسان ، عدد من الضباط الذين قربهم جمال عبد الناصر إليه وجعل منهم عصبة فى يده .. وجد هؤلاء أن قرار مجلس الثورة سيطيح بمراكزهم وبهم وبالأموال التى تغدق عليهم .

« وتجمهر هؤلاء الضباط أعوان جمال عبد الناصر واعلنوا أنهم سيحاصرون سلاح الفرسان ولتكن حربا أهلية . . وفعلا أصدر على صبري ووجيه أباظة أوامرهما لسلاح الطيران بتحليق بعض الطائرات وتحركت بعض وحدات المدفعية المضادة للدبابات لمحاصرة سلاح الفرسان واعتقل بعض ضباطه فى الشوارع وهم يتوافدون عليه فى الصباح .

« كانت خديعة وقع فيها ضباط الفرسان الذين تعاملوا بشرف مع ضباط القيادة الذين مثلهم جمال عبد الناصر وأعلن عليهم اقتراحه الخاص بعودتى وتعيين خالد محيى الدين رئيسا للوزراء .

« ورغم محاصرة سلاح الفرسان واعتقال بعض ضباطه إلا أن الأمر لم يتحول أوتوماتيكيا إلى يد مجلس الثورة أو يد جمال عبد الناصر . كان هناك رأى ضباط الأسكندرية وعدد كبير من الضباط فى مختلف الأسلحة .

وبعد قرار عودتى ، أذاع مجلس قيادة الثورة البيان التالى :

« حفاظا على وحدة الأمة يعلن مجلس قيادة الثورة عودة اللواء أركان حرب محمد نجيب رئيسا للجمهورية وقد وافق سيادته على ذلك » .

ثم جاء تفسير هذا البيان المختصر فى بيان لاحق ، جاء فيه :

« لقد أظهر الشعب مشاعره فى أنه مهما كانت الظروف والملابسات التى أحاطت بالتطورات الأخيرة ، فإن الغفران يجب أن يملأ كل قلب وأن ننسى كل شىء إلا أن للبلاد أهدافا وطنية غالية وحياة ديمقراطية سليمة ينبغى الوصول إليها بأسرع طريق . ومجلس الثورة الذى قام بها فى ٢٣ يوليو باسم الشعب ليقف اليوم أمام حمى الوطن المقدس فى خشوع فى هذه اللحظات التاريخية ليعلن أن القافلة ماضية فى طريقها صفا واحدا يتقدمه الرئيس اللواء أ . ح محمد نجيب رئيسا للجمهورية البرلمانية المصرية وأن مجلس قيادة الثورة يرأسه البكباشى أ . ح جمال عبد الناصر رئيس مجلس الوزراء ليتقدم ، للشعب المصرى ولشعب السودان الحبيب وللشعوب العربية والشرقية الصديقة برجاء حار هو أن تساعد بكل ما تملك من إيمان وقوة على أن يسود الهدوء وينزل ستار النسيان على هذه الأزمة التى اجتاحت الوطن واجتازها وتغلبت فيها روح إيثار المصلحة العليا للبلاد وتقديمها على كل ماعداها مهما بذل فى هذا السبيل من تضحيات والله ولى التوفيق » .

وصدر هذان البيانان بعد أن سلمت مجلس قيادة الثورة ، رسالة منى ، قلت فيها :

« حرصا منى على حفظ كيان الأمة فى الظروف الحاضرة وبناء على دعوة مجلس قيادة الثورة قبلت رئاسة الجمهورية البرلمانية المصرية » .
وقد كتبت هذه الرسالة بالاتفاق مع المجلس . .
وكتبت معها بيانا قلت فيه :
« وإنى أهيب بكل وطنى مخلص الايزج باسمى فى أية مناسبة ، وألا يتخذ أحد من استقالتى مادة تباع وتشترى فى سبيل المصالح الشخصية وأطماع أعدائنا » .

وفى اليوم التالى ، فوجىء الناس بعناوين الصحف تحمل نبأ عودتى ، فخرجت المظاهرات ، وانهالت البرقيات على مجلس القيادة ودور الصحف ، ورئاسة الجمهورية .
وكما فرحت مصر ، فرح السودان أيضا . . فنحر الناس الذبائح . . ووزعوا الفاكهة والشربات . . وأرسلوا فى أول يوم من الخرطوم إلى القاهرة ٢٠ الف برقية تهنئة .

وكان السودان معى منذ اللحظة الأولى للأزمة . . فقد طار منه وفد رسمي للخرطوم برئاسة محمد نور الدين ، للاستفسار عن حقيقة الموقف ، وبتعليمات من حكومته ، طلب من مجلس قيادة الثورة إما أن أحضر معهم إلى الخرطوم ، وإما أن يعد مجلس الثورة بإطلاق سراحى ، وأن يقبل أن أعتزل فى السودان .
وكان هذا الموقف أحد أسباب عودتى لرئاسة الجمهورية .

وقبل أن يعلن نبأ عودتى ، وصلت بعثة من الحزب الوطنى الاتحادى ، الذى كان يطالب بالوحدة مع مصر ، إلى القاهرة . . واتصل إسماعيل الأزهرى رئيس الوزراء بصلاح سالم ليخبره بأمر هذه البعثة ، فقال له صلاح سالم :
ـ إن الحالة عادت كما كانت بما يحفظ وحدة الوادى .
واصدر الازهرى على الفور بيانا ، قال فيه :
« إن الاستقالة كانت صدمة عنيفة لشعب السودان الذى كان يتأهب لاستقبال الرئيس محمد نجيب لافتتاح البرلمان فى الخرطوم ، لكن الصدمة لم تدم طويلا وزالت سريعا كسحابة صيف » .

وفى الساعة التاسعة والنصف من صباح ٢٨ فبراير ، خاطبت الجماهير الغفيرة من قصر عابدين ، وحاولت التخفيف من حدة الأزمة فوصفتها ، كما وصفها الأزهرى ، بأنها « سحابة صيف سرعان ماتنقشع » وطلبت منهم أن يحافظوا عن

الوحدة وأن يساعدوا إخوانهم أعضاء مجلس قيادة الثورة .

وفى ذلك اليوم أحيطت الشوارع القريبة من منزلى بالجنود لمنع أى مظاهرات تهتف بحياتى . . لكن الناس اندفعت عبر هذا الحصار واخترقت الأسلاك الشائكة المضروبة حول منزلى ، . . وحاولت زوجتى والخدم معها أن يفعلوا ما فى وسعهم لتهدئة الجماهير لكن بدون فائدة .

وفى ذلك اليوم خرجت مظاهرة ضخمة من جامعة القاهرة ، قاصدة ميدان الجمهورية ، وكان المتظاهرون يهتفون بحياتى ، وحياة الديمقراطية ، وردد بعضهم هتافات معادية ضد مجلس قيادة الثورة ، فوقعت اشتباكات بينهم وبين رجال الأمن والبوليس الحربى بقيادة البكباشى أحمد أنور ، الذى كان شديد القسوة والعنف فى التعامل مع المتظاهرين . . وأطلق رجال الأمن النيران . . فأصابت البعض . . وقبضت على البعض الآخر . . وكان من بينهم عدد من الإخوان الذين ازداد نشاطهم بعد حل جماعتهم . .

لقد حول أعضاء المجلس مظاهرات الفرح بعودتى إلى مآتم . .
حتى أن البعض رفع قمصان الضحايا الملوثة بالدماء فى وجهى وأنا أخطب فى قصر عابدين بمناسبة عودتى . .
ورفع الإخوان عبد القادر عودة على أكتافهم أمامى . .
ورغم أننى قلت ساعتها :
- إننى لم اقبل العدول عن الاستقالة إلا من أجل الحرية والديمقراطية وإجراء انتخابات برلمانية وتأليف جمعية تأسيسية تمثل مختلف هيئات الشعب ، ستجرى الانتخابات التى تعيد الحياة النيابية للبلاد . . .
إلا أن هتافات الاحتجاج على مجلس قيادة الثورة لم تتوقف . .
كانوا يصفونهم بالأعداء . .
فطلبت من عبد القادر عودة أن يصعد إلى الشرفة بجوارى . . وأكدت لهم أن النيابة ستحقق فى الحوادث التى وقعت . . وساعتها فقط هدأت الجماهير الغاضبة وانصرفت .
وفى اليوم التالى سافرت الخرطوم ، أنا وصلاح سالم والشيخ أحمد حسن الباقورى ، لافتتاح البرلمان .

كان التوقيت غير مناسب للسفر ، لكنى كنت حريصا على أن لاتفوتنى هذه المناسبة .
وفى اثناء غيابى زاد الموقف سوء فى مصر .
فقد قام جمال عبد الناصر باعتقال ١١٨ آخرين منهم عبد القادر عودة وأحمد حسين بتهمة إستغلال الخلاف بينى وبينه فى اشعال فتيل الثورة المضادة .
ثم قام بإعتقالات جديدة لعدد آخر من الإخوان والاشتراكيين والوفديين والشيوعيين .
وطالبت بإطلاق سراح المعتقلين فورا أو أن تحقق معهم النيابة وتحدد مواقفهم .

ورغم أننى أحسست فى تلك اللحظة أن كل شىء انتهى بينى وبين عبد الناصر ورفاقه فى مجلس الثورة ، إلا أننى وجدتها فرصة لعودة الحياة الديمقراطية ، والتخلص من الحكم الديكتاتورى .
أردت أن أطرق الحديد وهو ساخن .
وعلى ذلك بدأت على الفور مشاوراتى مع المجلس للتعجيل بعودة الحياة البرلمانية .
والتقيت بعبد الناصر فى بيت على ماهر بحضور السهنورى . .
سألتهم :
ـ من أين نبدأ الخطوة الاولى ؟
قال عبد الناصر :
ـ اقترح عودة دستور ١٩٢٣ !
وكان اقتراحا مريبا . . فرفضت الموافقة عليه .
وقال السنهورى :
ـ إن لجنة الدستور على وشك الانتهاء من عملها ، ومن الممكن تغير مواعيد الاجراءات حتى نسارع بإجراء الانتخابات الخاصة بالجمعية التأسيسية ، كما أن هذه الجمعية يمكن أن تباشر سلطات البرلمان حتى يجتمع .
واتفقنا على ذلك .

والتقينا بعد ذلك فى بيتى وفى بيت جمال عبد الناصر ، وشارك فى هذه الاجتماعات المكثفة ، عبد الحكيم عامر ، وصلاح سالم .

وفى منزل عبد الناصر جرى اجتماع موسع لمجلس قيادة الثورة ، فى منتصف ليلة ٥ مارس ، اتخذت فيه القرارات التاريخية الخاصة بعقد جمعية تأسيسية منتخبة

بطريق الاقتراع العام المباشر ، على أن تجتمع خلال شهر يوليو ١٩٥٤ ، ويكون لها مهمتان بارزتان :

١ - مناقشة مشروع الدستور وإقراره .

٢ - القيام بمهمة البرلمان إلى الوقت الذى يتم فيه عقد البرلمان الجديد وفقا لأحكام الدستور الذى ستقرره الجمعية التأسيسية .

وحتى تتم الانتخابات فى جو من الحرية تقرر إلغاء الأحكام العرفية قبل إجراء الانتخابات بشهر ، كما تقرر إلغاء الرقابة على الصحف والنشر إبتداء من ٦ مارس ١٩٥٤ ، وأن يستمر مجلس قيادة الثورة فى ممارسة سلطات السيادة لحين اجتماع الهئية النيابية الجديدة .

أحسست أننا نمش فعلا فى الطريق الصحيح للديمقراطية .

وكان على أن أسرع الخطى فى هذا الطريق ، فأمرت بإخراج بعض من حكمت عليهم محكمة الثورة مثل فؤاد سراج الدين وإبراهيم عبد الهادى .

وأصدرت قرارا بالإفراج تباعا عن ضباط المدفعية .

وأمام مؤتمر صحفى عالمى ، قلت :

« لاشك أنكم قد اطلعتم على القرارات أمس فى سبيل إقامة حياة دستورية ديمقراطية سليمة فى مصر ويسعدنى بهذه المناسبة أن أعبر لكم عن اغتباطى لهذه الخطوات التى أمكن اتخاذها حتى الآن والتى فتحت الطريق أمام الأمة للوصول إلى حياتها الدستورية الكاملة . ولاشك أنكم تعلمون أن كفاح الأمة فى سبيل الدستور والحياة الديمقراطية السليمة قديم لم ينقطع .

ولقد كان الوصول إلى الحياة الدستورية الكاملة - ومازال - سياستى التى ظللت أعمل لها فى الفترات الماضية ولم أغفل عنها يوما واحدا إيمانا منى بأن اشتراك الشعب فى أمور بلاده هو الضمان الوحيد ضد كل طغيان » .

وقلت أمام مؤتمر صحفى عالمى آخر :

- إن الحياة النيابية ستعود قريبا وإن الجمعية التأسيسية ستنعقد فى ٢٣ يوليو ١٩٥٤ وإن الأحكام العرفية ستلغى تماما فى ١٨ يوليو سنة ١٩٥٤ وربما قبل هذا التاريخ ، وإنه سيتم الافراج عن جميع المعتقلين الا من تثبت إدانتهم .

وفى هذا المؤتمر وجهت نقدا إلى الصحف التى دأبت على نشر اخبار الريبة والشكوك فى نوايا رجال الثورة .

فقد هاجمت بعض الصحف والمجلات ، مثل مجلة « الجمهور المصرى » سلوك ضباط البوليس الحربى ، وفضحتهم ، الأمر الذى أثار الخوف فى نفوس بعض الضباط ، وأحسوا أن عودة الديمقراطية تعنى نهايتهم ، أو محاسبتهم على ما ارتكبوه من جرائم ومخالفات ، إلى جانب فقدانهم النفوذ والسلطان . .

وكنت لا أريد أن تقع أى أزمة من جانب الضباط للقضاء على الاتجاه الديمقراطى الوليد .

وأصدرت بيانا أكدت فيه أننى ومجلس قيادة الثورة كيانا واحدا .

وحدث أن ذهبت لزيارة د . السنهورى فى بيته ، وكان عنده سليمان حافظ ود . عبد الجليل العمرى . . ففوجئت بالسنهورى يقول لى :

ـ إن كل الناس تشعر بالتوتر القائم بينك وبين مجلس قيادة الثورة !

فسألته :

ـ وماذا أفعل يادكتور ؟

قال :

ـ من مصلحة البلاد تصفية الأمر فى السر قبل الجهر .

فقلت له :

ـ أنت لا تعرف ما حدث عند اعتقالى !

ورويت له كل ماحدث ... واكتشفت أنه لم يكن سمع هذه التفاصيل من قبل .

فسألنى :

ـ والحل ؟

قلت :

ـ إننى لازلت لا أتمتع بسلطاتى . . فقادة الوحدات فى الجيش من أنصار عبد الناصر . . وهم عينوا بقرار من عبد الحكيم عامر . . والمفروض أن يعينوا بقرار منى . . أليس كذلك ؟

ووافقنى السنهورى . .

وقال :

ـ المسألة بسيطة . . وأعتقد أن من الممكن حلها !
فقلت ، وأنا أستعد للانصراف :
ـ كل شيء جائز !
قال :
ـ سنحل كل شيء فى اجتماع المؤتمر المشترك فى ٧ مارس الجارى .
قلت :
ـ لن أحضر هذا الاجتماع ما لم تعد الأمور كما كانت عليه قبل الاستقالة . . إن جمال عبد الناصر لا يزال يحتفظ برئاسة مجلس الوزراء رغم عدولى عن الاستقالة . . ولذلك لن أحضر .

ويبدو أن السنهورى أرسل سليمان حافظ لجمال عبد الناصر لحل الموضوع ، لأن سليمان حافظ كان موجودا فى المؤتمر المشترك الذى عقد فى البرلمان ، ورفضت أن أحضره إلا بعد إلحاح شديد ، ولأن حافظ قال لى ساعة أن دخلت الاجتماع :
ـ ماهى مطالبك ياسيادة الرئيس ؟!
قلت :
ـ أن تعود الأمور على ما كانت عليه قبل استقالتى !
ووافقوا . .

ولم أشأ أن أفجر أى حساسيات شخصية ، ولا أن أطلب اعتذارا عن أى إهانة لحقت بى ، وكان همى أن نستمر بقضية الديمقراطية إلى مزيد من النمو . وفى نهاية الاجتماع وزع صلاح سالم على الصحف بيانا بهذه الموافقة جاء فيه :

« رأى المؤتمر المشترك أن التعديلات التى طرأت على منصب كل من رئيس الجمهورية ورئيس مجلس الوزراء فى الأيام القليلة الماضية إنما كانت ثمرة للأحداث التى اجتازتها البلاد وخرجت منها سليمة الوحدة ، قوية العزم على المضى قدما فى سبيل تحقيق الثورة ، وبما أن صفحة هذه الأحداث قد طويت فقد صح العزم على أن يزال كل أثر لها وأن تعود الأوضاع إلى صورتها السابقة حتى يستقر فى يقين كل فرد من أفراد هذه الأمة الكريمة أن تلك السحابة العابرة انقشعت دون أن تخلف وراءها ظلا ينال من جلال الوحدة وقدسيتها . ولهذه الأسباب تقدم رئيس مجلس الوزراء البكباشى أ . ح جمال عبد الناصر إلى مجلس قيادة الثورة برغبة فى أن تعود الأوضاع إلى سابق عهدها ، وعلى ذلك تقرر اسناد

قيادة الثورة ورئاسة مجلس الوزراء بجانب منصب رئيس الجمهورية إلى اللواء أ . ح محمد نجيب وبهذه المناسبة أيضا يؤكد مجلس قيادة الثورة أن القرارات التى أعلنها هذا المجلس يوم الخامس من شهر مارس الحالى الخاصة بإعادة الحياة النيابية وبانعقاد الجمعية التأسيسية فى المواعيد التى سبق تحديدها فى هذا القرار . . والمؤتمر المشترك يناشد أبناء وادى النيل فى هذه المناسبة السعيدة أن يسدل ستار النسيان على أحداث الأيام الأخيرة وأن يعتصم بالوحدة وأن يضاعف من جهوده لمواجهه أعدائه أكثر قوة وأشد مراسا وليجنى فى أقرب وقت ثمار ثورته المباركة التى ستحقق له بإذن الله مايبغى من الحرية والمجد » .

وقبل أن ينفض الاجتماع المشترك ، طلب عبد الحكيم عامر ، احتفالا بما حدث ، أن يدعونا للطعام فى نادى الضباط ، فى اليوم التالى ، وحضر هذه المأدبة ١٣٥٠ ضابطا .

وعادت البهجة إلى الشارع . .

وعادت الصحافة تزغرد بالحرية . .

وعاد بعض الكتاب إلى أقلامهم التى تركوها فى ظل الرقابة

وكان منهم د . وحيد رأفت الذى سعدت عندما قرأت له فى جريدة « المصرى » فى ٨ مارس ، مقالة ، قال فيها :

« اليوم أعود إلى القلم لانفض عنه التراب ، وإلى الفكر لأجلو عنه الصدأ ، فالرقابة على الصحف لاتحطم الاقلام فحسب بل تقضى على ملكة التفكير . فلماذا يجهد الكاتب نفسه ويكدح المفكر ذهنه إذا كان ما تجود به قريحته لاينقل إلى الجمهور أبدا ولا يصلهم إلا مبتورا مشوها بفعل الرقيب . ويا ويل أمة لا يمارس كتابها إلا المدح والثناء ولا يسمح حكامها الا بتلك النغمة المرذولة فالنقد السياسى كالنقد عامة ضرورة من ضرورات الحياة والتقدم ورمز على الحيوية ، فبغيره تفتر الهمم وتتقاعس النفوس ويخبو الذهن والاصلاح » .

لكن . . هذا المناخ الذى تمنينا أن يدوم ، والذى لم نعرفه سوى أيام ، سرعان ما تلبد بالغيوم . . وبدأت الأمور تتردى مرة اخرى .

أضربت بعض السيدات واعتصمن فى مبنى نقابة الصحافيين ، ورفضن الطعام حتى الموت . . هاجمت « الاخبار » فكرة الانتخابات وحذرت من عودة الاحزاب . . احتج مجلس نقابة الصحافيين على عودة الرقابة على جريدة القاهرة بقرار من صلاح سالم . .

وتلقيت خطابا من حسن الهضيبى من داخل السجن ، قال فيه :
« أما بعد . .

« فإن مجلس قيادة الثورة قد أصدر قرارا فى ١٢ يناير سنة ١٩٥٤ بأنه يجرى على جماعة الإخوان المسلمين قانون حل الأحزاب السياسية ومع ما فى هذا القرار من مخالفة لمنطوق القانون ومفهومه . فقد صدر بيان نسبت إلينا فيه أفحش الوقائع وأكثرها اجتراء على الحق واعتقلنا ولم نخبر بأمر الاعتقال ولا بأسبابه وقيل يومئذ أن التحقيق فى الوقائع التى ذكرت به سيجرى علنا فاستبشرنا بهذا القول لأننا انتظرنا أن تتاح لنا فرصة الرد عليه لنبين أن ماشتمل عليه كله وعلى الصورة التى جاءت به لا حقيقة له . فيعرف كل إنسان قدره ويقف عند حده . . ولكن ذلك لم يحصل .

« وإلى أن تتاح لنا الفرصة فإننا ندعوكم وندعو كل من اتهمنا وندعو أنفسنا إلى ما أمر الله به ورسوله عليه الصلاة والسلام حين قال : فقل تعالوا ندع أبنائنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » .

« وقد استمرت حركة الاعتقالات طوال شهرين كاملين حتى امتلأت المعتقلات والسجون بطائفة من أطهر رجالات البلد وشبابها بلغوا عدة الاف لكثير منهم مواقف فى الدفاع عن البلاد وعن حريتها شهد بها الأعداء قبل الأصدقاء وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ولم يكتفوا بالكلام كما يفعل كثير من الناس . إما كيفية الاعتقال ومعاملة المعتقلين فلن نعرض لها هنا .

« وقد بدت فى مصر بوادر حركة ـ إن صحت ـ فقد تغير من شأنها وأنظمتها . وقرار حل الإخوان وأن أنزل اللافتات عن دورهم فإنه لم يغير الحقيقة الواقعة وهى أن الإخوان المسلمين لايمكن حلهم لأن الرابطة التى تربط بينهم هى الاعتصام بحبل الله المتين وهى أقوى من كل قوة ولا زالت هذه الرابطة قائمة ولن تزال كذلك بإذن الله . ومصر ليست ملكا لفئة معينة ولا حق لأحد ان يفرض وصايته عليها ولا أن يتصرف فى شئونها دون الرجوع إليها أو النزول على إرادتها لذلك كان من واجب الواجبات على الإخوان المسلمين أن يذكروكم بأنه لايمكن أن يبت فى شئون البلاد فى غيبتهم وكل ما يحصل من هذا القبيل لن يكون له أثر فى استقرار الأحوال ولايفيد البلاد بشىء .

« وإن مادعوتم إليه من الاتحاد وجمع الصفوف لايتفق وهذه الاحوال فإن البلاد لايمكن أن تتحد وتجمع صفوفها. وهذه المظالم وامثالها قائمة .
« نسأل الله تعالى أن يقى البلاد كل سوء وأن يسلك بنا سبيل الصدق والعمل وأن يهدينا إلى الحق وإلى الصراط المستقيم .
« والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

حسن الهضيبى
المرشد العام للإخوان المسلمين

وتلقيت خطاب آخر من عمر نقيب المحامين ، طالب فيه برفع الاعتداء الجسيم الذى وقع على المحامين : أحمد حسين وعبد القادر عودة وعمر التلمسانى بعد اعتقالهم .

وفى العاشرة والنصف من صباح الجمعة ٢٦ مارس ١٩٥٤ ، اجتمعت الجمعية العمومية لنقابة المحامين للنظر فى ما وقع على المحامين المعتقلين ، وعودة الحياة النيابية وإلغاء الأحكام العرفية فورا والافراج عن المعتقلين السياسيين ، والدعوة إلى وضع ميثاق وطنى يرتبط به قادة البلاد وزعماؤها يستهدف جمع الكلمة وإجلاء الغاصب والرجوع بالبلاد إلى الاوضاع الطبيعية .
وعودة العسكريين إلى ثكناتهم .

وأحسست بالخطر من أن تندفع هذه القوى غير المنظمة لتفتح علينا باب الاضطرابات والجحيم .
وكان الحل فى رأيى ان تعود الاحزاب ، قبل انعقاد الجمعية التأسيسية ، حتى تأخذ المعركة الانتخابية أبعادها الحقيقية . . وكما كتبت من قبل :
« كانت الأحزاب منذ قيام الحركة قد غيرت الكثير من أفكارها وتنظيماتها مما ظهر واضحا فى برامجها المعلنة عقب صدور قانون تنظيم الأحزاب . .

« برنامج الوفد المعلن ينادى (بسياسة ديمقراطية اشتراكية لتحقيق الاستقلال والوحدة ورفض جميع صور الدفاع المشترك) كما أنه طالب بوضع حد أدنى للأجور وصدور قانون بمعاقبة الوزراء ، واستصدار قانون تأمين صحى واجتماعى للعمال وأفراد أسرهم والانتهاء من تعميم المياه الصالحة للشرب خلال خمس سنوات . . كما أعلن البرنامج موافقته على مشروع الإصلاح الزراعى باعتباره يهدف للعدالة الاجتماعية ويقرب بين الطبقات . .

« ونص برنامج السعديين على تحديد حد أدنى لأجور الفلاحين مع توجيه البلاد بالعمل على تحويل رؤوس الأموال المصرية الراكدة إلى ميدان الاستغلال الصناعي والتجاري والاستعانة برؤوس الاموال الاجنبية فى حدود تتفق مع مصلحة البلاد .

كنت اعتبر وجود الأحزاب هى الركيزة القوية للديمقراطية ، وأن برامجها المتطورة هى ضمان التزامها بأهداف الجماهير . .

وكان قانون الاصلاح الزراعى قد هز كثيرا من نفوذ الاقطاعيين من رجال الأحزاب فى الأقاليم وفتح بابا للأفكار الحرة المتجددة .

لم تكن الأحزاب تعنى رجعة الى الوراء . .

لم تكن بمثابة النكسة للثورة . .

فأحزاب الأقلية التى استندت إلى قوة السراي فقط ضاع تأثيرها نهائيا وتبدد نشاطها وآثر قادتها السلامة بعيدا عن نزاعات السلطة . . وما أظن أن وجودها كان يمكن أن يمثل خطرا لضياع مصدر تأييدها وهو السراى .

والوفد استند إلى برنامج شعبى يجعله قادرا على مواصلة دوره فى كسب تأييد الجماهير ، كما أن تصفية الاقطاع أضعفت من نوازع بعض الافراد فى قيادته ، وقوت أمل الشباب المثقف المتطلع من جماهيره .

والإخوان المسلمون جرفتهم الأحداث ليعلنوا عن انفسهم كحزب سياسى .

والاحزاب والتنظيمات الآخرى يسارية كانت أو يمنية أمامها فرصة الاختيار فى مواجهة الجماهير .

طبيعة الأحزاب كانت قد تغيرت . . والانتخابات الديمقراطية التى نطلبها لم تكن خطوة إلى الخلف وإنما كانت خطوة إلى الأمام لأنها تحمل تعبيرا عن إرادة الجماهير فى الرقابة الشعبية والمشاركة الفعلية فى شئون الحكم .

هذا ما كنت أؤمن به . .

وهذا ما كنت سأطالب به الحكومة والمجلس فى أول اجتماع مشترك . .

وكان موعد هذا الاجتماع فى ٢٠ مارس . .

لكن قبل يوم واحد من هذا الموعد وقعت مفاجأة مذهلة غيرت خطتى . .

وقعت ستة انفجارات فى ذلك اليوم ، لكن فى أماكن متفرقة ، منها السكة الحديد ، والجامعة ، وجروبى ، ولم يقبض على الفاعل . .

وقد عرفت بعد سنوات أن هذه الانفجارات كانت بتدبير من جمال عبد الناصر ، كما اعترف البغدادى فى مذكراته ، وذلك لإثبات أن الأمن غير مستقر ولابد من العودة بالبلاد إلى الحالة غير العادية .

وأنا فى الحقيقة شممت هذه الرائحة القذرة فى اجتماع اليوم التالى . . فقد تعالت الصيحات التى تطالب بالضرب على أيدى المخربين . . وقلت لهم فى صراحة أقرب للاتهام :

- لايوجد صاحب مصلحة فى التخريب إلا هؤلاء الذين يبتغون تعطيل مسار الشعب إلى الديمقراطية .

وعندما أحس البعض بالبطحة التى فوق رؤوسهم ، طالبوا بتخلى أعضاء المجلس عن السلطة وإنسحابهم من الميدان .

وتكهرب الجو . .

كنت أريد أن تمر هذه الأيام فى سلام حتى موعد الانتخابات الذى فتحنا له القيد فى جداول الناخبين فى ١٥ مارس . . وكانوا هم يضعون الأمور على طرف نقيض . . وعلى كف عفريت .

وأدركت أنهم يسعون لتفجير الموقف . .

وإلى . . هدم المعبد . .

وفى مساء نفس اليوم كنت أنا وعبد الناصر فى قصر عابدين ، فى انتظار حضور الملك سعود لدخول مأدبة العشاء الرسمية المقامة على شرفه ، عندما لمح جمال عبد الناصر ، سليمان حافظ قادما ، فناداه ، وسأله :

- هل من الضرورى دستوريا أن تعود الأحزاب المنحلة قبل انتخابات الجمعية التأسيسية ؟!

فقال سليمان حافظ :

- لا . . بل والأولى لخير البلاد ومصلحتها ألا تكون كذلك .

وكدت أن أضحك من هذه المسرحية الساذجة . .

فأى دستور يتحدثان عنه . . الدستور الذى سقط ؟ . . أم الدستور الذى يعد ؟ . .

ثم إننى أنظر من وجهة النظر السياسية . . أليس من الأفضل أن تكون الأحزاب موجودة قبل الانتخابات ؟ . . من يختلف على ذلك . إلا من يريد الديكتاتورية ويخشى على نفسه من الديمقراطية ؟

ولأننى أعرف أن الحوار بين عبد الناصر وسليمان حافظ كان مسرحية أمامى ، ولأننى أردت أن أحرق عليهما مايرميان إليه . .

حولت الحوار إلى اتجاه آخر . . مفاجىء . .

قلت لسليمان حافظ :

- لابدّ الآن من إجراء استفتاء شعبى على رئاستى للجمهورية .

كنت أريد أن أحصل على تفويض من الشعب بكل الاجراءات الديمقراطية والشرعية التى كنت أسعى إلى المضى فيها .

فقال سليمان حافظ :

- لامبرر لذلك . . ويمكننا الاستفتاء مع انتخابات الجمعية التأسيسية فى نفس الوقت .

وجاء الملك سعود ليفض هذا الحوار العابر .

وفى ٢٢ مارس ، حاول سليمان حافظ ومعه د . عبد الجليل العمرى ، أن يحلا الخلافات العميقة بينى وبين عبد الناصر ، وأن يتدخلا لحل هذه الأزمة التى صعدوها إلى حد إلغاء المجلس . . فأعدا مشروعا للحكم ، لسد الفراغ ، حتى انتخابات الجمعية التأسيسية . . وتضمن هذا المشروع :

- إلغاء الأحكام العرفية قبل ١٨ يونيو ١٩٥٤ .
- الإفراج عن جميع المعتقلين السياسيين .
- تشكيل وزارة مدنية تتولى كافة السلطات .
- أن يقتصر اختصاص مجلس قيادة الثورة على تعيين أو عزل رئيس الحكومة والوزراء بعد تصديق رئيس الجمهورية .
- إذا وقع خلاف بين المجلس ورئيس الجمهورية ، يفض الخلاف بواسطة هيئة تحكيم تتكون من ستة أشخاص ، يختار رئيس الجمهورية اثنين منهم ، ويختار مجلس الثورة اثنين منهم ، وتختار الجمعية العمومية لمجلس الدولة الاثنين الآخرين مع الجمعية العمومية لمحكمة النقض .
- انتخابات الجمعية التأسيسية لا تجرى على أساس حزبى .

- يتم إجراء استفتاء شعبى على القرارات التى سبق أن أصدرها مجلس قيادة الثورة مثل إعلان الجمهورية ، وقانون الإصلاح الزراعى ، وتعيين رئيس الجمهورية .

وقبلت المشروع ، رغم أننى كنت أتمنى اجراء انتخابات الجمعية التأسيسية على أساس حزبى . . وقبلت المشروع لعله يجنبنا تفجيرات أخرى بينى وبين باقى أعضاء المجلس . . وقبلت المشروع بعد أن هدد د . العمرى وباقى الوزراء المدنيين بالاستقالة لو لم يتحسن الموقف . . وقبلت المشروع بعد أن عرفت أن عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وغيرهما ، وافقوا عليه .
وكان قبولنا لهذا المشروع ، يمثل أحد الجسور التى مدت لعبور الزمن الباقى ، لتنفيذ قرارات ٥ مارس . . لكنه لم يكن الجسر الوحيد الذى مد أمامنا ، لعبور تلك الفترة الحرجة . .

فبعد يومين ، اقترح يوسف صديق ، فى مقال نشره فى جريدة المصرى ، تشكيل حكومة مدنية ائتلافية ، برئاسة الدكتور وحيد رأفت على أن تشترك فيها كل الاحزاب والتيارات السياسية ، من الإخوان إلى الشيوعيين ، ومن الوفد إلى الاشتراكيين . . وأن تكون هذه الحكومة بهذا التشكيل هى المسئولة عن انتخابات البرلمان الجديد .

وأعجبنى هذا الرأى . .
لأنه يجمع بين رغبتى فى إجراء الانتخابات على أساس حزبى ، وفى نفس الوقت لايمنع من تنفيذ مشروع سليمان حافظ ود . العمرى الذى وافقنا عليه .

وشجعنى على ذلك تأكيد حزب الوفد على ما سبق أن أعلنه وقاله ، من أنه يوافق على الإصلاح الزراعى ، وعلى النظام الجمهورى ، وعلى عودة الحياة النيابية للجميع ، وأنه لا يعترض على معظم قرارات مجلس الثورة .
وأعلن فؤاد سراج الدين :
- إنه ليس صحيحا ما أشيع من أن النحاس يفكر فى ترشيح نفسه رئيسا للجمهورية .
وخرجت من باقى الأحزاب تصريحات أخرى مشجعة .

على أننى رغم كل ذلك ، كنت لا أزال أشعر أن هناك قنبلة ستنفجر داخل

مجلس قيادة الثورة ، لأننى كنت أعرف جيدا أن أغلبهم كان يشعر أن العد التنازلى له قد بدأ . . وأن الأيام الباقية على انتخابات اللجنة التأسيسية هى الأيام الباقية لحياته .

وسرعان ماتحول إحساسى إلى يقين . .

ولم يطل الانتظار بإحساسى لأراه أمامى واقعا . .

فبعد أيام . . وبالضبط فى ٢٥ مارس . . إنعقد مجلس الثورة . . ومنذ اللحظة الأولى التى رأيت فيها وجوههم حتى أيقنت أن القنبلة على وشك الانفجار . . لا مجاملات . . ولا سلامات . . ولا أبتسامات . . وإنما . . حدة . . وتجهم . . وصراحة . . بدأ عبد اللطيف بغدادى الجلسة قائلا :

ـ أنا أقترح إلغاء قرارات ٥ مارس فورا .

هكذا بلا لف أودوران . . .

وكان عنده حق فى هذه الصراحة ، فقد فشلت كل الأساليب الملتوية ، وسقطت كل الأقنعة ، ولم يعد أمامهم إلا الكلام بصراحة أو الموت بصراحة .

وقد عرفت بعد ذلك أنه اتصل بزملائه من ضباط الطيران ووجدهم غاضبين على قرارات ٥ مارس ، وأيدهم فى غضبهم ، وطلب منهم الاستعداد لثورة أخرى إذا ما نفذت هذه القرارات .

وفى هذة الجلسة قال خالد محيى الدين :

ـ أنا أعلن تمسكى بهذه القرارات .

لكنه أضاف :

ـ لكننى أريد أن تنفذ هذه القرارات بصورة ديمقراطية جديدة ، تحرم رؤساء الأحزاب ، ومن طبق عليهم قانون الإصلاح الزراعى ، وكل من صوت ضد قوانين الحريات ، والذين رفضوا رفع ضريبة الأطيان من حق الترشيح للجمعية التأسيسية .

يعنى وضع قيودا على تنفيذ القرارات وقيدها .

وقال جمال عبد الناصر :

ـ إن مجلس قيادة الثورة سينتهى عمله فى ٢٣ يوليو القادم والأحزاب تعود إلى وضعها القديم .

وكالعادة أيده صلاح سالم ، ورفض كلام خالد محيى الدين ، وقال :
ـ لا . . كل شيء يجب أن يعود إلى صورته القديمة .
ولم أتدخل فى الحوار . .
فقد كنت أشعر أنه حوار يبعدوننا به عن أمور محددة . . ومعروفة . . وسبق مناقشتها . . واقرارها .
وفى صمت ، ودون تعليق تابعت الحوار . .
قال جمال سالم :
ـ لو أعدنا الأحزاب سيعود الحزب الشيوعى .
فقال خالد :
ـ إننى أطالب بعودة الحياة النيابية والدستور الجديد هو الذى سيحدد الموقف من الحزب الشيوعى .
وقال البغدادى :
ـ وسنفرج عن كل المعتقلين
فقلت :
ـ مرحبا بهذا القرار .
وقال أحدهم :
ـ وسنفرج عن النحاس !
فقلت :
ـ هذا حقه لأنه اعتقل ظلما ، فقد أضيف اسمه إلى كشف المعتقلين بعد توقيعى عليه .
فقال آخر :
ـ وسنفرج عن الهضيبى وباقى زعماء الاخوان .
ووافقت على ذلك .

ولم أدر ساعتها أننى أقع فى كمين أو فخ نصبوه ببراعة . . وإن كنت أحسست ساعتها أن انتقالهم من معاداة الأحزاب إلى الترحيب بعودتها ، ومن اعتقال الزعماء السياسيين إلى الإفراج عنهم ، مسألة تثير الريبة ، وتؤكد أن هناك مؤامرة ما يحيكون نسيجها . . لكن ماذا كنت أفعل ، وأنا أراهم ، رغم عدم ثقتى فيهم ، يسعون إلى تنفيذ ما كنت أريده .

وانتهى الاجتماع بعد ٥ ساعات .
واعلن صلاح سالم قرارات ٢٥ مارس !
وكانت :
١ ـ يسمح بقيام الأحزاب .
٢ ـ المجلس لا يؤلف حزبا .
٣ ـ لا حرمان من الحقوق السياسية حتى لا يكون هناك تأثير على الانتخابات .
٤ ـ تنتخب الجمعية التأسيسية انتخابا حرا مباشرا بدون تعيين أى فرد ويكون لها السيادة والسلطة الكاملة ، وتكون لها سلطة البرلمان كاملة ، والانتخابات حرة .
٥ ـ حل مجلس الثورة فى ٢٤ يوليو المقبل باعتبار الثورة قد انتهت وتسلم البلاد لممثلى الأمة .
٦ ـ تنتخب الجمعية التأسيسية رئيس الجمهورية بمجرد انعقادها .
كانت هذه القرارات فى ظاهرها ديمقراطية وفى باطنها فتنة وتوتر .

فقد أثارت الناس الذين لم يرق لهم أن تعود الأحزاب القديمة ، بكل ما توحى من فساد وتاريخ أسود ، وبكل ما توحى لهم بنهاية للثورة التى عقدوا عليها كل آمالهم فى التطهر والخلاص .

وأثارت هذه القرارات ، فى نفس الوقت ، ضباط الجيش الذين أحسوا أن نصيبهم من النفوذ والسلطة والمميزات الخاصة قد انتهى .

يعنى لا الذين كانوا مع الديمقراطية رحبوا بها ولا من كانوا مع الديكتاتورية .
ولا أنصار الثورة وافقوا عليها ولا أعداؤها .
ولا المدنيون شجعوها ولا العسكريون .
كانت هذه القرارات الستة أشد انفجار من القنابل الست التى انفجرت منذ أيام .
وكنت ساعتها بين نارين . . نار أن ارفضها فأتهم بالديكتاتورية . . ونار أن اقبلهافأتهم بأننى انهيت الثورة وقضيت عليها . . لم يكن أمامى اى مفر . .

وضاعف من قلة حيلتى ، أن الملك سعود كان يزور مصر ، وكنت مشغولا به ، وببرنامج زيارته ، وكان عبد الناصر وشلته يدبرون للحظوة التالية من مؤامرتهم التى اعترف بحبكتها وبراعتها .

وكانت الخطوة التالية اتهامى بأننى أدبر خطة للثورة المضادة بينى وبين الوفد . ونشرت الصحف أن هناك اتصالات سرية تجرى بينى وبين الوفد وهذا لم يحدث بالطبع . .

كل الذى حدث هو أننى صباح اليوم التالى لصدور هذه القرارات ، طلبت النحاس باشا تليفونيا ، وسألته :

- هل أنت راض الآن ؟

فقال الرجل :

- راض على إيه ؟ . . أنتم أفرجتم عن كل الناس ، وضاعفتم الحراسة على !

فقلت :

- إن شاء الله سيزول كل هذا العناء !

وفهمت ما حدث . .

ضاعف رجال الثورة القيود على رجال الأحزاب حتى يشككوا فى صدق القرارات ، فلا يؤيدونها ، فأفقد حتى القوة الوحيدة الباقية التى لها مصلحة فى مساندتى .

وسجلت أجهزة المخابرات بأمر من زكريا محيى الدين المكالمة . . وتحولت على الفور من مكالمة شخصية إلى مكالمة سرية . . ومن سؤال عن النحاس إلى مؤامرة مع الوفد .

ودفعت المخابرات بنص المكالمة إلى جريدة « الأخبار » التى تساند عبد الناصر بكل قوتها .

ورغم ذلك لم يفرج عن النحاس . .

ولم يفرج عن أحمد حسين . . ولا عن رشاد مهنا . .

بينما أفرج عن حسن الهضيبى ، الذى اتصلت به فقالوا لى :

- فى الحمام !

وبعد الافراج عن الهضيبى ذهب جمال عبد الناصر ، لزيارته فى منزله ، فى منتصف الليل ، وفى صباح اليوم التالى ، نشرت الصحف :

انه تقرر الافراج عن جميع الاخوان .

وان الاخوان استأنفوا نشاطهم وعقدوا اجتماعا مع المرشد العام لجماعتهم .

وأعلن الهضيبى :

ـ إننا الآن أقوى مما كنا !
ووقع الإخوان فى الفخ الذى نصبه لهم جمال عبد الناصر .

فقد كان الإخوان هم القوة المرجحة لفوز إحدى القوتين المتنازعتين فى هذه المرحلة . . قوتى . . وقوة عبد الناصر . . وكان على عبد الناصر أن يستميلهم إلى جانبه ، فإذا ما كسب معركته معى ، وسيطر على الحكم استدار عليهم ، وتخلص منهم . . وهذا حدث فعلا .
لقد اشتراهم عبد الناصر ليبيعنى . . ثم . . باعهم واشترى السلطة المطلقة .

إن خطأ الإخوان فى هذا الموقف كان خطأ استراتيجيا . . لأنهم تصوروا أن القضاء على الأحزاب كان لصالحهم ، بحيث يصبحون الحزب الوحيد ، والقوة الوحيدة ، ولم يدركوا ببساطة حكاية العصا الوحيدة التى يمكن كسرها ، ومجموعة العصى التى لا يمكن كسرها معا والتى كنا نسمعها ونحن أطفال ، ولانزال نرويها لصغارنا الى الان .

والدليل على ذلك ، أنهم انتهوا إلى السجن والتعذيب والتشريد عندما وصل عبدالناصر إلى الحكم ، بينما كان موقفهم فى تلك الفترة ، ضد الأحزاب ، وضد تعدد الآراء ، حتى أن أحد قادتهم قال للصحف يوم ٢٧ مارس :

« فيما يختص بعودة الأحزاب السياسية أملنا ألا يعود الفساد أدراجه مرة أخرى ، لأننا لن نسكت على هذا الفساد بل ونؤيد الشعب كاملة ولن نطلب تأليف أحزاب سياسية لسبب بسيط هو أننا ندعو المصريين جميعا لأن يسيروا وراءنا ويقتفوا أثرنا فى قضية الإسلام » .
أى أن الإخوان ظلوا على مواقفهم القديمة ، ولم يتعلموا من درس حلهم ، ولا من درس وضع قادتهم فى السجن ، وقرروا أنهم ضد الحياة النيابية ، ومع الحياة العسكرية .
وقد سبق أن حاول الإخوان اقناعى بمثل هذا الكلام ، لكنى رفضت .
كان ذلك فى ديسمبر ١٩٥٣ .
وقد سبق أن رويت تفاصيل ما حدث ، وقلت :

« لقد حاول الإخوان المسلمون الاتصال بى فى ديسمبر ١٩٥٣ ، عن طريق محمد رياض ، الذى اتصل به حسن العشماوى ومنير الدالة وطلبوا أن تتم المقابلة

سرية بينى وبينهم واقترحوا مكانا للمقابلة منزل الدكتور اللواء أحمد الناقة الضابط بالقسم الطبى بالجيش . وكانت هذه مفاجأة لى لأنها أول مرة أعرف أن للدكتور أحمد الناقة ارتباطا بالإخوان المسلمين . ورفضت فكرة الاجتماع السرى بهم وأبلغتهم بواسطة محمد رياض أننى مستعد لمقابلتهم فى منزلى أو مكتبى . لكنهم اعتذروا عن ذلك وطلبوا أن أفوض مندوبا عنى للتباحث معهم . فوافقت وعينت محمد رياض ممثلا عنى للاجتماع بهم بعد أن زودته بتعليماتى . واجتمع محمد رياض بممثلى الإخوان المسلمين حسن العشماوى ومنير الدالة عدة مرات .

« وأوضح لهم رياض رأيى فى إنهاء الحكم العسكرى الحالى وعودة الجيش إلى ثكناته وإقامة الحياة الديمقراطية البرلمانية وعودة الأحزاب وإلغاء الرقابة على الصحف ، ولكنهم لم يوافقوا على ذلك وطالبوا ببقاء الحكم العسكرى الحالى ، وعارضوا عودة الأحزاب وإقامة الحياة النيابية كما عارضوا إلغاء الأحكام العرفية وطالبوا بإستمرار الأوضاع كما هى على أن ينفرد نجيب بالحكم وأن يتم إقصاء جمال عبد الناصر وباقى أعضاء مجلس الثورة وأن تشكل وزارة مدنية « يشترك فيها الإخوان المسلمون ولكن يتم تأليفها بموافقتهم . وأن يعين رشاد مهنا قائدا عاما للقوات المسلحة وأن تشكل لجنة سرية استشارية يشترك فيها بعض العسكريين الموالين لى وعدد مساو من الإخوان المسلمين وتعرض على هذه اللجنة القوانين قبل إقرارها ، كما يعرض عليها السياسة الرئيسية للدولة وكذلك يعرض عليها أسماء المرشحين للمناصب الكبرى . . كأن الإخوان المسلمين بذلك يريدون السيطرة على الحكم دون أن يتحملوا المسئولية .

« وقد رفضت هذه الاقتراحات جميعها ، وانتهت هذه المفاوضات السرية التى كانت بين محمد رياض والإخوان المسلمين . . وقد تعرض محمد رياض للمتاعب بعد ذلك عندما قال الصاغ حسين حمودة وكان من الإخوان المسلمين أمام محكمة الشعب أثناء محاكمته فى شهر نوفمبر ١٩٥٤ : أن اتصالا سريا تم بينى وبين الإخوان بواسطة محمد رياض ، وذكر أمام المحكمة آرائى التى نقلها محمد رياض لحسن عشماوى ومنير الدلة والتى ذكرتها سابقا ، وصدر أمر بالقبض على محمد رياض بتهمة تدبير انقلاب عسكرى مع الإخوان المسلمين ولكنه استطاع الهرب إلى المملكة السعودية بالطائرة وطلب اعتباره لاجئا سياسيا .

وتمت مقابلة بينه وبين جمال عبد الناصر فى جدة سنة ١٩٥٦ عاد بعدها محمد رياض فى سنة ١٩٥٨ .
وفى عام ١٩٦٨ اعتقل محمد رياض مرة ثانية بتهمة تدبير مؤامرة ضد جمال عبد الناصر وأفرج عنه بعد أن توسطت إحدى البلاد العربية .
إلا أن الإخوان فى لقائهم مع جمال عبد الناصر لا بد أنهم يفكرون بعقلية المعتقل الذى تحرر من سجنه ، ويريد أن يوازن بين أموره دون تورط ، وكان ذلك إيذانا بانتهاء دورهم .
وكما قلت قبل ذلك :
اقترح محمد رياض معاودة الاتصال بالإخوان المسلمين الذين وقفوا بجانبى عند استقالتى فحذرته من ذلك لفقدان الثقة فى اتجاه بعض زعمائهم ومعارضتهم قيام الأحزاب والحياة الديمقراطية .

وعاد محمد رياض فى اليوم التالى ليبلغنى أنه أرسل رسولا إلى حسن الهضيبى ، هو الآن سفير مصر فى إحدى الدول الافريقية وهو السفير رياض سامى يستفسر منه عن حقيقة موقف الإخوان واستعدادهم للخروج فى تظاهرات شعبية عند الضرورة .
وقال حسن الهضيبى أنهم لم يتدبروا أمرهم بعد ، وإنهم يفضلون الانتظار والهدوء حتى يتم الإفراج عن كافة المعتقلين .

وقد كان هذا موقف مكتب الإرشاد للإخوان المسلمين أما جماهير الإخوان التى خرجت لتأييدى فى فبراير بعد استقالتى فى مظاهرات ضخمة لم تشهد مصر مثلها من قبل ، هذه الجماهير التى واجهت نيران الشرطة والبوليس الحربى وخرجت تهتف بعودتى وقت أن كانت قيادة الإخوان فى المعتقلات ، هذه الجماهير لم توافق مكتب الإرشاد على هذه السياسة بل احتل بعض شباب الإخوان المسلمين مركز الإخوان احتجاجا على ذلك . وكان هذا بداية الانقسام فى الإخوان المسلمين الأمر الذى ساعد فى القضاء عليهم .

إننى بمنتهى الصراحة لم أتصور أن يغير الإخوان موقفهم ويؤيدوا جمال عبد الناصر .

ومع ذلك ، كان مافعله عبد الناصر ، هو أهم ضربة سياسية فى حياته ، ولولاها ما وصل إلى الحكم .

وفى ليلة ٢٧ مارس . . بالضبط فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، أيقظونى من النوم . . لأجد أمامى فى حجرة النوم ، محمد رياض ، يعتذر عن هذا الاقتحام . .

قلت له فى توتر :

ـ إيه ؟ فى إيه يا محمد ؟

قال :

ـ أنا آسف يا فندم . . لكن فيه معلومات مهمة لازم ابلغها لسيادتك

قلت وقد تيقظت تماما :

ـ اتكلم . . فى إيه ؟

قال :

ـ أنا علمت يا فندم من مصادر قوية الثقة أن هناك مظاهرات ستقوم فى الصباح ، وستهتف بسقوط الأحزاب والديمقراطية .

فسألته :

ـ من سيقوم بها ؟

قال :

ـ سيقوم بها عمال النقل ، الذين اتفق معهم الصاغ احمد طعيمة (احد المشرفين على هيئة التحرير) وسيدعمهم على الفور قوات الحرس الوطنى ، الذين سيرتدون ملابسا مدنية ، ستوزع عليهم ، وهناك احتمال أن يأتى عمال من مديرية التحرير ، إلى القاهرة أيضا ، بعد أن اتفق الصاغ مجدى حسنين على ذلك .

وقبل أن ينتهى رياض من كلامه ، كنت قد أدركت أن مجلس الثورة أراد إحراق البلد ، وإحراق الديمقراطية ، وإحراق قرارات ٥ و ٢٥ مارس أيضا . . وطلبت ساعتها زكريا محيى الدين فى التليفون . .

وقلت له :

ـ أنتم تلعبون بالنار يا زكريا . . والنار ستحرقكم قبل أن تحرق أى شىء آخر . . وعليكم أن تتحملوا نتيجة ما تفعلون !

فقال :

- من أين جئت بهذا الكلام ، إننى لا أعرف عنها أى شىء

ولم اقتنع بنفى زكريا محيى الدين . .

واستدعيت وكيل وزارة الداخلية فى الفجر ، وأمرته أن يفض المظاهرات بالقوة وأن يمنعها قبل قيامها فطلب منى إذنا بإطلاق النار على المتظاهرين إذا لم تستطع قوات البوليس فضها . . وطلب أن يكون هذا الإذن كتابة . . فرفضت تماما . . وقلت له :

- تقطع يدى ولا أوقع أمرا بإطلاق الرصاص على أبناء الشعب .

وخرج وكيل وزارة الداخلية ، ودخل محمد رياض . . فطلبت منه أن يجلس لنفكر معا بصوت مرتفع . .

قال رياض :

- ما رأيك يا فندم أن تصدر قرارا بإقالة الوزارة ، وتعهد ألى الدكتور وحيد رأفت بتشكيل وزارة جديدة .

ثم قال :

- وعلى الفور أتجه أنا ومجموعة من الحرس الجمهورى والضباط الموالين لنا باقتحام البرلمان (حيث تعقد جلسات المؤتمر المشترك بين المجلس والوزارة) أثناء اجتماع الأعضاء المشتركين ونعتقلهم . . ولو استدعى الأمر نطلق الرصاص عليهم أو على من يدافع عنهم .

باختصار أراد رياض أن نعتقل الوزراء وأعضاء مجلس الثورة .

واصغيت له بأنتباه ، لأننى ، وأنا أعترف بذلك ، قد فكرت ، لأول مرة فى هذا الإجراء .

وقبل أن أتخذ هذا القرار ، فكرت أن أناقش خالد محيى الدين ، واسمع منه ، قبل أن أقول كلمتى الأخيرة.

كانت الساعة السادسة صباحا ، عندما أرسلت محمد رياض ليستدعى خالد محيى الدين .

وجاء خالد فعلا :

وقال :

- أنا أشك فى وجود مؤامرة ضد قرارات مارس . . ولا داعى ياسيدى الرئيس لإجراء مثل هذا التصرف العنيف .

ثم قال :

- إن جمال عبد الناصر وأعضاء المجلس فى حالة انهيار تام .

ونجح خالد فى اقناعى باستبعاد هذا القرار .

وانتهيت معه إلى أن أعتقال أعضاء المجلس ، سيؤدى إلى امرين كلاهما مر أما أن . . يعتقلوا برجال البوليس فيرفض زكريا محيى الدين . .

وأما برجال الجيش ، فتقوم اشتباكات مسلحة ، ربما تطورت لحرب أهلية ، أو دفعت الجيش إلى سلسلة من الانقلابات العسكرية .

وقبل أن أواصل سرد الأحداث الخطيرة التى وقعت ، أحب أن أتوقف قليلا ، هنا ، وأرصد وأسجل حركة القوى السياسية ، وحجمها فى ذلك الوقت . .

فى ذلك الوقت كان الوفد ضعيفا . . وكانت قيادتة مضروبة . . فقد أفرج عن فواد سراج الدين ، لكنه بقى معتقلا فى مستشفى مجدى ، كما أفرج عن إبراهيم فرج ، لكنه بقى معتقلا فى قصر العينى . . وضوعفت الحراسة على بيت النحاس . . وبقيت جماهير الوفد الكبيرة دون قيادة تحركها . . ولو تحركت جماهير الوفد لكانت معى ، لأن قيادته كانت ضد مجلس الثورة ، وضد تعطيل الانتخابات النيابية والحياة البرلمانية .

وكانت قيادات الشيوعيين فى السجن أيضا ... أما الجماهير الشيوعية فكان كل همها فى ذلك الوقت محاكمة قادتها الذين أصدروا ماسمى ببيان السجن الحربى ، والذى أيدوا فيه الثورة ، فى وقت كان الشعار المطروح عودة الجيش الى الثكنات .

وكان هذا بالتحديد موقف « حدتو » . .

أما باقى الأحزاب الشيوعية فكانت ضدى وضد المجلس ، وضد الضباط عموما .

أى أن الشيوعيين كانوا هم أيضا خارج الساحة فى ذلك الوقت ، فيما عدا « طليعة العمال » الذى كان التنظيم الوحيد الذى كان يمكن أن يلعب دورا ، لكنه لم يفعل .

وبالنسبة للإخوان سبق أن أفرطت فى شرح موقفهم ودورهم .

وبالنسبة لمن يمكن أن نسميهم بالمثقفين (نقابة المحامين . نقابة الصحافيين .

والجامعة) فقد كانوا مع الديمقراطية ، ومع الحياة النيابية ، وضد أعضاء المجلس بعد أن اكتشفوا أنهم أنصار انقلاب عسكرى ، أهدر الديمقراطية إلى الابد . . وبالتالى كان عداؤهم حاسما لمجلس الثورة ، وقد دفعوا ثمن هذا الموقف ولايزالون .

وبالنسبة لجماهير « البروليتاريا » سواء كانت تنتمى إلى الوفد إو إلى الأحزاب الشيوعية ، فإنها كانت مع إطلاق الحريات وعودة الضباط إلى ثكناتهم ، باستثناء نقابات النقل المشترك ، التى كان لها مطالب قديمة ، مثل اعادة المفصولين ، وإلغاء لائحة الجزاءات ، وصرف المتأخرات ، وكانت ترى أن الثورة هى التى ستأتى لها بهذه المطالب .

أما الضباط الأحرار « فقد كان البعض منهم يرتبط بمبادىء يقتنع بها . . جانب منهم وقف معى . . مع الديمقراطية وتعرض من ذلك لأخطار حرمتهم فيها بعد من حريتهم وامنهم فى المستقبل . . وجانب آخر وقف مع جمال عبد الناصر معتقدا أن موقفى يعتبر تراجعا عن أهداف الثورة . . وبعض هؤلاء لحقته نقمة الديكتاتورية بعد أن أزيلت الغشاوة عن عينيه واكتشف الحقيقة المؤلمة وبعد أن أصبح عاجزا عن مقاومة طوفان الارهاب . .

والبعض منهم لم يكن مرتبطا بأية مبادىء . . كان حريصا على المحافظة على مصالح نعم بها واستفاد بها . . وجانب منهم كان قد تورط فى أعمال قذرة جعلتهم يواجهون خطر المحاكمة إذا ذهبت اليد المساندة لهم .
هذه هى خريطة القوى السياسية فى مصر ، قبل ساعات من اشتعال ازمة مارس . .
فماذا حدث بالضبط ؟ !

كان من المقرر أن يزور الملك سعود الأسكندرية ، وحسب البرنامج المعد كان على أن اصطحبه ومع أعضاء مجلس الثورة ، إلى هناك . .
وفى محطة مصر ، فوجئت بهم ، عدا خالد محيى الدين ، وحسن إبراهيم ، يعتذرون .
تخلفوا فى القاهرة لينفذوا خطتهم . .
واختاروا اليوم الذى أسافر فيه مع الملك ، ليكون ساعة الصفر المناسبة لخطتهم . .

وبينما أنا أرافق الملك سعود فى الأسكندرية ، انفجرت المظاهرات فى القاهرة . . كانت مظاهرات مفتعلة ، تغمر شوارع القاهرة وتسد طرقاتها وتهتف بحياة الثورة والضباط وتطالب بسقوط الأحزاب والرجعية والديمقراطية . . ودارت المظاهرات حول البرلمان والقصر الجمهورى ، ومجلس الدولة . . وكررت هتافاتها . . واذكر منها الآن : « لا أحزاب . . ولا برلمان » !

ووصلت (الخطة السوداء) ذروتها فى هذا اليوم ، عندما اشتروا كما سبق وقلت بعض القيادات العمالية الصفراء مثل صاوى أحمد صاوى (صو صو) رئيس اتحاد عمال النقل ، ودفعوهم إلى عمل إضراب يشل الحياة والحركة واشترك فى المظاهرات جنود من البوليس الحربى يرتدون الملابس المدنية وعمال مديرية التحرير المسلحون بالعصى ، وجنود الحرس الوطنى مرتدين الملابس المدنية ، وكنت قد أمرت بتشكيل هذا الحرس الوطنى قبل أن أبدأ المفاوضات مع الانجليز وعهدت بقيادته إلى كمال الدين حسين للقيام بالأعمال الفدائية ضد قوات الاحتلال البريطانى فى منطقة القناة .

قطعت زيارتى للإسكندرية وعدت بالطائرة فى المساء الى القاهرة لأجد مجموعة من الضباط فى انتظارى وهم ينتظرون منى أمر الحركة .

امتلأ منزلى بعدد كبير من الضباط وفدوا من مختلف الوحدات يعلنون استعدادهم الكامل لتحريك قواتهم ضد مجلس الثورة ، أو اعتقالهم فى مقرهم . . وكان فى مقدمة هؤلاء القائمقام أحمد شوقى قائد حامية القاهرة والذى كان ليلة الثورة قائد الكتيبة ـ ١٣ مشاة والذى قام بدور بارز ليلة ٢٣ يوليو . وكان قد أرسل خطابا مفتوحا نشرته الصحف يطالب فيه بتشكيل وزارة مدنية والإصرار على تنفيذ قرارات ٢٥ مارس .

كان الموقف يقترب من نقطة الصدام . . من المذابح ونزف الدماء . . من الحرب الأهلية . . كانت أية تعليمات ألقيها فى هذه اللحظة تتحول إلى قذائف مدفعية وطلقات رصاص » .

وكان إعطائى الأمر لهؤلاء الضباط المحتشدين يعنى تناطح الجيش وسقوط الضحايا ونزيف الدماء واحتمالات الحرب الأهلية والخراب والتدخل الأجنبى » .

هذا إلى احتمال آخر . .
ماذا لو انتصر هؤلاء الضباط ؟ . .
هل يقبلون العودة فورا الى الثكنات ؟ . .
ألا يطالبون بالانتظار فترة إلى أن تستقر الأمور ثم تطول المدة إلى أن يستقروا فى السلطة ؟ . .
المشكلة كلها تتركز فى الانقلاب العسكرى . . فى تحريك قوات الجيش لتغيير الأمور تحت تهديد السلاح .
هذا العمل فى ذاته حتى لو تم تحت أعظم الشعارات التى يتبناها الشعب لابد أن ينتهى إلى فرض إرادة الجيش على السلطة وإنتهاء الديمقراطية وبدء عهد من الديكتاتورية العسكرية » .
وعرفت فى ذلك الوقت تفاصيل الإضراب الذى وقع فى ذلك الصباح . . عرفت أن دار اتحاد نقابات النقل المشترك اختيرت مكاناً للاعتصام . . وأن السبب فى هذا الاختيار هو أن الاتحاد المشترك يسيطر على شريان القاهرة الحيوى وهو المواصلات . .

وعرفت أن الاعتصام بدأ من السابعة والنصف من مساء اليوم السابق ، واستدعيت مجالس إدارات النقابات الآخرى لتتخذ قراراتها بالاضراب والاعتصام . . وأخذت الاذاعة المصرية فى اذاعة قرارات النقابات الآخرى حتى قبل اتخاذها فعلا . . وقد تضمنت هذه القرارات صيغة شبه موحدة وهى :
١ ـ عدم السماح بقيام الأحزاب .
٢ ـ استمرار مجلس قيادة الثورة فى مباشرة سلطاته حتى يتم الجلاء .
٣ ـ قيام هيئة تمثل جميع النقابات والاتحادات والروابط والجمعيات والمنظمات الى جانب مجلس قيادة الثورة لتكون بمثابة الجمعية الوطنية ، تعرض عليها القرارات التى يرغب المجلس فى إصدارها .
٤ ـ عدم الدخول فى معارك انتخابية .

وفى ذلك اليوم جاءتنى معلومات « مؤكدة ان اتفاقا قد تم بين الأمريكان وبعض أعضاء مجلس الثورة على هذه المؤامرة وأن قوات الاحتلال البريطانى وضعت فى حالة استعداد وأنها أحتلت مواقع متقدمة على طريق السويس القاهرة للتقدم فى حالة حدوث اشتباك مسلح لاحتلال القاهرة » .

وقال خالد محيى الدين :
- ان صحفيا فرنسيا إسمه روجيه استيفانو من مجلة لو نوفيل اوبزرفاتور قال لى انه عرف بحكم صلته الوثيقة بالسفارات الأمريكية والبريطانية والفرنسية ان جمال عبد الناصر وبعض رفاقه أعطوا للأمريكان : إشارة بالتساهل فى توقيع اتفاقية الجلاء وإدخال تركيا فى حالة العودة إلى القاعدة ، وذلك ثمن لتأييدهم فى المعركة ضد نجيب .
وبعد أن استعرضت كل ماحصلت عليه من معلومات ، حسمت أمرى وقررت :
عدم اللجوء الى القوة . . رفض اعتقال مجلس الثورة . . عدم تحريك القوات . . ترك الامور كلها للشعب .
وكان الشعب معى فعلا . .
ففى نقابة المحامين طالبت الجمعية العمومية بالديمقراطية وعودة الضباط إلى ثكناتهم .

وفى الجامعة اجتمعت هيئة التدريس بجامعة الأسكندرية فى يوم ٢٧ مارس وأصدروا بيانا طالبوا فيه بإلغاء الأحكام العرفية وتركيز السلطة لحين اجتماع الجمعية التأسيسية ، فى يد وزارة مدنية تتحمل المسئولية أمام الشعب بالاشتراك مع رئيس الجمهورية .

وفى نفس اليوم عقد طلبة جامعة القاهرة مؤتمرا وطنيا أعلنوا فيه تأليف « جبهة الاتحاد الوطنى » التى تضم الوفديين والاشتراكيين والإخوان المسلمين والشيوعيين ، واتخذوا قرارات بإلغاء الأحكام الاستثنائية والإفراج عن المعتقلين وتأليف وزارة ائتلافية لإجراء الأنتخابات وإلغاء مجلس الثورة فورا .
ولكن . .
كان صوت الغوغاء اعلى من صوت الشعب .
واثناء مناقشاتى مع الضباط حضر إلى منزلى سليمان حافظ ود . السنهورى وعبد الرحمن عزام ، وتوسعت المناقشة .
وعندما انتهت المناقشة مع الجميع أيقنت أننى أمام أحد أمرين :
إما استخدام القوة العسكرية .
وإما الاستقالة .
واحمد الله أننى أخترت الاستقالة . . فقد جنبت البلاد الانقسام . . لكن . . فى

نفس الوقت ، وبعد مرور ٣٠ سنة ، أعترف أنني أخطأت . . فلو كنت قد واصلت الصراع ، ولم أنسحب منه تحت أى شعار براق أو عاطفى أو أخلاقى ، لما وقعت مصر فى المصيدة العسكرية . . ولكانت قد تجنبت دفع الثمن الباهظ الذى دفعته من حريتها ومن دماء أبنائها فى داخل السجون والمعتقلات .

ولم يستثنى من دفع الثمن الذين خدموا عبدالناصر ولعبوا أدورا لصالحه مثل الصاوى أحمد الصاوى ، الذى اعتدى عليه أحمد أنور ، بالضرب فى مطار القاهرة ، أمام المودعين أثناء سفر جمال عبد الناصر إلى باندونج . . وألقى عظاما بعد أن أكلوا لحمه .

وقد جرت تلك الأحداث المؤسفة على مسمع ومشهد من الملك سعود الذى كان يقيم فى قصر الطاهرة المخصص لكبار الزوار . .
وحاول الملك سعود التدخل لحل الأزمة . .
فاتصل بى تليفوينا ورجانى أن أحضر لمقابلته . . فرحت إليه .
واستدعينا من عنده جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر و د . السنهورى فحضروا بعد منتصف الليل تقريبا .
وكما كتبت من قبل :
كان الاجتماع هادئا ومرهقا معا .
لم أستطع النظر فى وجه جمال عبد الناصر وعبد الحكيم . . كنت أرى على وجهيهما قناع إبليس . . ومن أيديهما تقطر الدماء . .

كنت منهكا كملاكم فى الجولة الثانية عشرة . . لم أهزم بالضربة القاضية ، ولكنى هزمت بالنقط بعد كفاح طويل . . فقد كانت نقابة المحامين مازالت تعلن عن الأضراب وطلبة الجامعة يعقدون مؤتمرا يؤيدون فيه الاتجاه الديمقراطى وهيئات التدريس فى الجامعات أصدرت بيانات تؤيد الديمقراطية والحياة النيابية . . ولكنى واثق أن قوات الجيش الموالية لمجلس الثورة يمكن ان تتحرك لإطلاق الرصاص على أية هيئة إذا تعرضت خطتهم السوداء للفشل .

قلت للملك سعود :
ـ لقد وصلت الأمور إلى نقطة الافتراق . . ولم يعد هناك سبيل للتفاهم مع

أعضاء المجلس بعد أن تآمروا على وعرضوا سلامة مصر إلى الخطر . .
ثم بعد لحظات من الصمت ، اعلنت :
- وقرارى هو . . الاستقالة !
وفوجئت بجمال عبد الناصر يعارض هذا القرار ، ويصر على عدم الاستقالة .

« ولم أشهد إصرارا من جمال عبد الناصر على معارضة هذا القرار مثلما شاهدت هذه الليلة . . وكان يؤكد إصراره هو وزملائه على بقائى معهم رئيسا للجمهورية ورئيسا لمجلس الثورة . . وكنت أصر على الرفض رفضا مطلقا .

واستمرت المناقشات ساعات حتى وصل إلينا صوت المؤذن للصلاة . . صلاة الفجر ، من المسجد القريب . . الأعصاب أنهكت والأفكار جمدت والجسم أصابه الإرهاق . . ولم يعد هناك من جديد .
وتحت إلحاح الجميع قبلت البقاء فى موقعى إنقاذا لمصر ومنعا للحرب الاهلية .

وكان واضحا أن معارضة جمال لهذا القرار لاتنبعث من حبه لى ، ولكن من خشية انفجار مثلما حدث منذ اربعه اسابيع فقط ، فى شهر فبراير ، كانت الخطة السوداء قد اكتملت . . ضباط البوليس أعلنوا أن العودة للحياة النيابية مع وجود الاحتلال خدمة استعمارية . . وقوات الحرس الوطنى ومنظمات الشباب التى يقودها الصاغ وحيد جودة رمضان نقلت قواتها إلى القاهرة ، وعمال مديرية التحرير التى يديرها مجدى حسنين استقرت فى القاهرة أيضا .

وفى يوم ٢٩ مارس وقع الاعتداء على الدكتور السنهورى .
صباح ذلك اليوم نشرت جريدة « الاخبار » ان الجمعية العمومية لمجلس الدولة سوف تجتمع اليوم بدعوة عاجلة من رئيس المجلس . . وأوحت الأخبار أن المجلس سيتخذ قرارا ضد الثورة .

وكان هذا الايحاء غريبا . . فالدكتور السنهورى كان دائما مع الثورة ، وكان يسارع دائما هو وسليمان حافظ ، إلى إرضائها بصياغة ما تشاء من تشريعات ، وكان كما عرفت من سليمان حافظ فيما بعد : أكثر لوما لى من عبد الناصر .

وتوجهت مظاهرة مدبرة من عمال مديرية التحرير ، ومن ضباط وجنود البوليس الحربى ، إلى مجلس الدولة ، بعد سحب الحراسة من عليه .

وكان أحمد أنور قد طلب من حسين عرفه (الأول كان مديرا للبوليس الحربى يومها والثانى كان ضابطا عنده) منع اجتماع الجمعية العمومية لمجلس الدولة بالذوق أو بالقوة .

فذهب حسين عرفه إلى السنهورى ، ليطلب منه ذلك ، فرفض السنهورى مقابلته . . فأرسل مندوبا من البوليس الحربى للطحاوى وطعيمة (هيئة التحرير) فوصلت المظاهرات ، إلى المجلس تهتف : « الموت للخونة » .

واقتحم المتظاهرون مبنى المجلس ، ودخلوا قاعة الاجتماع ، واعتدوا بالضرب على د . السنهورى ، وعلى بعض الأعضاء ، وبعد ذلك حبسوهم فى القاعة ، وأجبروهم على توقيع بيان بتأييد مجلس الثورة .

واستغاث بعض موظفى المجلس بالمسئولين هاتفيا أكثر من مرة ، حتى جاء صلاح سالم ، الذى تظاهر بتهدئة الغوغاء ، واصطحب السنهورى إلى بيته فى مصر الجديدة . . ولم يعد السنهورى من يومها إلى مجلس الدولة . .

كان الاعتداء على السنهورى اعتداء على القانون فى صورة رجاله . . وكان هذا الحادث هو الأول من نوعه ولكنه لم يكن الأخير . .

وكان هذا الحادث السطر الأول فى ملحمة عصر غياب القانون .

ورحت أودع الملك سعود ، فى نفس اليوم ، فى المطار . . وراح معى جمال عبد الناصر وباقى أعضاء مجلس الثورة . . وصعدت سلم الطائرة مبالغة فى تكريم الملك سعود ، فظن بعض أعضاء المجلس أننى أنوى الهروب إلى السعودية ، ففوجئت بمن يشدنى من ثيابى ، فأحسست ، بجانب الإرهاق العصبى والنفسى والجسدى ، الذى كنت أعانيه ، بطعنة فى صدرى . . وتكاتفت كل هذه العناصر على ، حتى سقطت من طولى ، وأسرع أطباء القوات الجوية ، ومنهم د . رجب عبد السلام ، لإسعافى .

ونقلت من المطار إلى البيت ، وكان معى جمال عبد الناصر .
وكان يبدو وكأنه مضطرب ، يعانى من خوف على صحتى ، ودخل حجرة نومى ، وتمنى لى الشفاء العاجل . . كل ذلك ليقنع الناس أنه برىء مما حدث ، أو مما قد يحدث لى . .

وعرفت يومها معنى المثل البلدى القائل :
- يقتل القتيل ويمشى فى جنازته !
فقد كانت هذه اللحظات هى لحظات نهايتى الفعلية . . وكانت لحظات نهاية الديمقراطية أيضا . .
أنا والديمقراطية انتهينا فى لحظة واحدة .

وفى الساعة السادسة والنصف من مساء اليوم أذاع صلاح سالم القرارات الخطيرة التالية التى توصل إليها الاجتماع المشترك بين المجلس والوزارة ، وحضره كل الأعضاء من الجانبين ، ما عدا الوزراء المدنيين الذين سبق أن قدموا استقالاتهم بعد قرارات ٢٥ مارس وهم : حلمى بهجت بدوى وعبد الجليل العمرى ووليم سليم حنا وعباس عمار وحسن بغدادى ، وكانت هذه القرارات :
أولاً : إرجاء تنفيذ قرارات ٥ و ٢٥ مارس حتى نهاية فترة الانتقال فى العاشر من يناير ١٩٥٦ .
ثانيا : يشكل فورا مجلس وطنى استشارى يراعى فيه تمثيل الطوائف والهيئات والمناطق المختلفة ويحدد تكوينه واختصاصه القانون .
لكن . .
لا هذه القرارات نفذت بعد نهاية الانتقال ولا بعدها .
ولا المجلس الوطنى كان له دور ولا اجتمع أبدا .
وبدأت رحلة مصر السوداء مع الظلم والإرهاب والمعتقلات .
وفى اليوم التالى ، بدأ عبد الناصر فى تصفية حساباته مع الجميع ، على ضوء هذه الأزمة .

لقد بدأ مجلس الثورة فى تتبع القوى السياسية ، وأخذ يصفيها بالقوة وبالاعتقال وبالمحاكمات الصورية .
وبقيت فى الفراش ثلاثة أسابيع أتابع ما يحدث من الجرائد . .
وفى ١٥ أبريل قرر مجلس الثورة :
١ - تطهير الصحافة .
٢ - منح سلطات للمسئولين فى الجامعات لضمان انتظام الدراسة فيها .
٣ - البحث فى اصدار قانون لحماية الثورة والأسس التى يقوم عليها المجلس القومى . . أو الوطنى .

وكانت ترجمة هذه القرارات ، حل مجلس نقابة الصحافيين ، واتهام الكثير من رجال الصحافة بتقاضى مصروفات سرية ، ومنهم حسين أبو الفتح وفاطمة اليوسف وإبراهيم عبده واحسان عبد القدوس وكامل الشناوى . . وفى نفس اليوم صدر قانون حرمان من تولى منصبا وزاريا من ٦ فبراير ١٩٤٣ إلى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، من كافة الحقوق السياسية . . وعلى ذلك حرم الوزراء الوفديون ، والدستوريون والسعديون من حقوقهم ، وكان منهم النحاس ، وفؤاد سراج الدين ، ومحمد حسين هيكل ، وإبراهيم عبد الهادى ، وأحمد نجيب الهلالى ، ومحمد صلاح الدين ، والسنهورى ، وغيرهم . (كانوا ٢٢ وزيرا وفديا و٨ سعديين ، و٨ دستوريين) وانتهى الضباط الذين وقفوا إلى جانبى إلى السجن .

أما الذين وقفوا بجانب عبد الناصر فكان مصيرهم السجن أيضا ، أو الإبعاد ، ومنهم : أحمد أنور ، وأحمد طعيمة ، وعبد الفتاح فؤاد ، ومجدى حسنين ، ووحيد جودة رمضان وحسين عرفة ، وجمال القاضى ، وعبد الرحمن نصير ، وأبو الفضل الجيزاوى ، وغيرهم .

ولم يلبث أن سيطر عبد الناصر على كل شيء . .

فبعد يومين من هذه القرارات ، وفى ١٧ أبريل ، تولى رئاسة الوزراء وامتنعت عن حضور جلسات المجلس ، وأدخل حسين الشافعى إلى وزارته ، وزيرا للحربية ، وحسن إبراهيم وزيرا لشئون رئاسة الجمهورية .

وأصبحت السلطة الشرعية والفعلية فى يده تماما .

وقام عدد من ضباط سلاح الفرسان بإعداد خطة للهجوم على مجلس قيادة الثورة تحت شعار إعادة الديمقراطية وهى القضية التى اعتقل فيها أكثر من ٢٥ ضابطا وحكم فيها على اليوزباشى أحمد المصرى بالسجن ١٥ عاما .

وكان خالد محيى الدين ، عندما عاد من الاسكندرية ، بعد أن ذهب معى إليها ، أثناء زيارة الملك سعود ، قد قدم استقالته فقبلها جمال عبد الناصر ، فورا ، وسأله :

ـ ماذا ستفعل ؟

قال خالد :

ـ مش عارف !

فقال عبد الناصر :

ـ لا . . قعاد هنا مفيش !

وتفى خالد إلى سويسرا . . وفتح الباب أمام تشريد باقى الضباط ، إما إلى السجن ، وإما إلى المنفى .

وهذا ما دفع ضباط الفرسان ، لإعداد خطة للتحرك ، والسيطرة على الحكم فى ٢٤ أبريل ، لكنهم اعتقلوا قبل ساعة الصفر بعد أن وشى بهم أحد ضباط البوليس الحربى الذى كان معهم . . وحوكموا أمام لجنة أشرف عليها زكريا محيى الدين ، وكان أحد أعضائها الدجوى .

وفى آخر مايو اعتقل ٢٥٢ شيوعيا .

واعتقل عدد كبير من الضباط الإخوان فى الجيش .

ولم يلبث أن دفع الإخوان ثمن تأييدهم لعبد الناصر ، فى أزمة مارس عندما دبر ما سمى بحادث الاعتداء عليه فى المنشية يوم ٢٦ أكتوبر ، واتهم فيها محمود عبد اللطيف .

ففى ١٩ اكتوبر وقع النص النهائى لاتفاقية الجلاء ، وظهر فى هذه الاتفاقية ما سبق أن قيل حول العلاقة بين التخلص منى ، وبين توقيع الاتفاقية ، فقد نصت على السماح للقوات البريطانية بالعودة للقناة فى حالة الهجوم على تركيا ، عضو حلف الاطلنطى ، وهو الأمر الذى يجعل مصر ترتبط عمليا بالأحلاف .

وكان ثمنا فادحا دفعه الموافقون وعلى رأسهم جمال عبد الناصر للاستعمار . . وقارنت بين رفضى لمجاراة الأمريكان فى آرائهم أو عروضهم بينما ظلت الأبواب مفتوحة بينهم وبين عبد الناصر يدخل منها المسئولون وعملاء المخابرات الامريكية . . وتعقد خلال ذلك الصفقات السياسية المريبة .

« وأرسلت مذكرة بآرائى فى اتفاقية الجلاء ، ووصلت المذكرة إلى الإخوان المسلمين ، الهيئة الوحيدة المنظمة والمصرح بوجودها عن طريق لا اعرفه فقاموا بطبعها وتوزيعها منشورا .

وبينما يلقى جمال عبد الناصر خطابا فى المنشية ، فى ٢٦ أكتوبر ، احتفالا بتوقيع الاتفاقية ، أطلقت عليه عدة رصاصات ، وسط ١٠ الآف شخص فى السرادق ، واتهم محمود عبد اللطيف .

كان محمود عبد اللطيف يجلس على بعد ١٥ مترا من المنصة والضيوف ، وقيل إنه اطلق عليه ٩ رصاصات ، لكن عبد الناصر لم يصب ، وأصيب ميرغنى حمزة (وزير سودانى) وأحمد بدر المحامى . .

وكانت هذه المسرحية المدبرة ، محاولة لتحويل عبد الناصر إلى بطل شعبى ومحاولة لينسى الناس عوار اتفاقية الجلاء ، ثم هى فرصة ليتخلص عبد الناصر من القوة الوحيدة الباقية وهى الإخوان .

أقول مسرحية لأن محمود عبد اللطيف المتهم باغتيال عبد الناصر كان معروفا عنه مهارته فى إصابة الهدف بالمسدس ، كما أنه من الفدائيين المحترفين الذين أرقوا الانجليز فى منطقة القناة عام ١٩٥١ ، ثم أن المسافة كانت قريبة تسمح له بإصابة الهدف وهو جسد جمال عبد الناصر العملاق ، ثم إن الرصاصات كانت تسع ، ولكان من الطبيعى أن يصاب بواحدة منها على الأقل ، ولو إصابة سطحية . أكثر من ذلك ذهب الاتهام إلى حد القول بشريك آخر يسنده بمسدس أو قنبلة . . ولو أراد الإخوان أن يقتلوا عبد الناصر ويضمنوا نجاح العملية فلماذا لم يرسلوا خمسة أو عشرة لتنفيذها . .

واتضح فيما بعد أن الحائط المواجه لإطلاق النار لم يكن به أى أثر للرصاص مما يثبت أن المسدس كان محشوا برصاص « فشنك » .
ورغم ذلك أبرقت له مستفسرا عن صحته .
وأرسلت مندوبا عنى له .
لكنى فوجئت بأن الجرائد لم تنشر هذه الأخبار .
وعندما سألته عن السبب بعد أن قابلته ، قال :
- هى كثرة المشاغل لا أكثر ولا أقل :
ولأننى عرفت أسلوبه جيدا ، فقد قلت له :
- هل تريدون ان توهموا الناس بأنى راض عن هذا العمل ؟
ثم أضفت :
- عبثا تحاول تلويث سمعتى بهذه الأعمال الإرهابية . . فإن يدى كانت وستظل نظيفة وليست مثل (الأيادى القذرة) التى تعمل فى الظلام .

ونجح عبد الناصر بهذا الحادث ان يضرب اكثر من عصفور بحجر واحد .

ضرب الإخوان .
وضربني .

فقد اعتقل الإخوان ، وشكل في اول نوفمبر محكمة الشعب (برئاسة جمال سالم وعضوية أنور السادات وحسين الشافعي) لمحاكمتهم وبلغ عدد الذين حوكموا أمامها ٨٦٧ وعدد الذين حكمت عليهم ٢٥٤ ، وحكم بالإعدام على سبعة من كبار المتهمين ، في ٤ ديسمبر وهم محمود عبد اللطيف ، ويوسف طلعت ، وإبراهيم الطيب ، وهنداوي دوير ، والشيخ محمد فرغلي ، وعبد القادر عودة وحسن الهضيبي ، الذي خفض الحكم عليه الى المؤبد .

أما أنا فقد تلقيت وعدى في ١٤ نوفمبر .

في ذلك اليوم توجهت إلى مكتبي في القصر الجمهوري ، فوجدت بعض ضباط البوليس الحربي على باب القصر . . وتبعني إثنان منهم إلى المكتب فنهرتهما . .

فقالا لى :

« إن عندهما تصريحا من كبير الياوران بالنيابة بالدخول ، وهو الاميرالاى حسن كامل الذى عين سفيرا فيما بعد . . وبحثت عنه فلم اجده » .

نهرتهما بشدة . . فخرجا .

واتصلت بعبد الناصر ، فقال :

- سوف أرسل لك عبد الحكيم وحسن إبراهيم .

وعندما جاء عامر وحسن إبراهيم قالا لى في خجل وبصوت خافت :

- إن مجلس الثورة قرر إعفاءكم من منصب رئيس الجمهورية .

وهنا قلت :

- أنا لن أستقيل الآن لأني بذلك سأصبح مسئولا أمام التاريخ عن ضياع صلة السودان بمصر . . أما إذا كان الأمر إقالة فمرحبا لأنكم تعفونني من مسئولية لم يعد ضميري يحتملها .

وخرجت معهما حاملا المصحف وحده من المكتب .

وركبت مع حسن إبراهيم عربة اتجهت بي إلى المرج . . إلى منزل كان استراحة ريفية لزينب الوكيل ثم وضع تحت الحراسة . .

وقال لى عامر :

- إن اقامتك المرج لن تزيد عن بضعة أيام .

ولكن إقامتي في المرج استمرت من نوفمبر ١٩٥٤ إلى أكتوبر ١٩٨٣

الفصل الحادى عشر

كيف ضاع السودان؟

- مايشكو منه السودانيون هو نفسه ما كانوا يشكون منه منذ أربعين سنة .
- عبد الناصر كان يعتبر السودان عبئا على مصر يجب التخلص منه .
- تخلص مجلس الثورة من وحدة وادى النيل مقابل استقلال مصر عندما قال صلاح سالم : السودان ضايع . . ضايع .
- مظاهرة ضدى فى الخرطوم تهتف : لا مصرى ولا بريطانى . . السودان للسودانى .

قبل أن أسرد ماحدث لى فى معتقل المرج ، أريد أن اتوقف قليلا عند بعض القضايا الداخلية والخارجية ، التى كنت طرفا فيها ، مثل قضية الجلاء وقضية السودان ، وقضايا التحول الاجتماعى والاقتصادى داخل مصر بعد الثورة . لقد أنهكتنى رواية الصدام والنزاع بينى وبين عبد الناصر ، وجعلت أحاسيسى كلها تهتز وأنا استعيد تفاصيلها ، وحاولت فيها أن أكون موضوعيا ، قدر استطاعتى ، فأنتهى بى ألحال إلى مزيد من الألم النفسى الحاد ، الذى لم أعد احتمله بعد كل هذه السنين . . ولم يكن من الممكن أن أواصل رواية الغم والألم ، فى معتقل المرج ، دون أن اقطعها بفصول تبعدنى عنها ، ولو قليلا . . وقد أخترت أن أبدأ هذه الفصول بفصل عن السودان ، وقضيته مع الانجليز والاستقلال وثورة يوليو . . وأنا لست فى حاجة إلى أن أذكر إلى أى مدى أحب السودان والسودانيين . . فهذا معروف عنى تماما . . وما رويته عن جدى وأبى وطفولتى وصباى هناك يضيف إلى ما هو معروف عنى ، ماهو غير معروف عنى . . ورغم ذلك فهناك فى ذاكرتى ، وأوراقى ، ومذكراتى الخاصة والعامة عن السودان ما لم اذكره إلى الآن على هذه الصفحات .

إن السودان لم يكن بالنسبة لى مجرد ارتباط عائلى ولا عاطفى . . وانما كان ايضا ايمانا بأهميته وضرورته لمصر . . ولم يكن مجرد فصل من حياتى وانما هو ايضا فصل من حياة مصر .

وهذا الفهم الذى يعتبره معظم ابناء الجيل الجديد مفاجأة ، كان منذ عشرات السنين حقيقة ، لم نكن نتصور انها ستصبح وهما وسرابا . . والدليل على ذلك اننى قلت وسجلت فى كتابى عن السودان ، منذ ٤٠ سنة ، مانقوله ونطرحه ونناقشه الآن ، ونحن نتكلم عن علاقة مصر بالسودان . .

ففى هذا الكتاب الذى سميته « رسالة عن السودان »، قلت فى التمهيد لموضوعاته وفصوله :

اننا فى أشد الحاجة الى تلقين أحوال السودان وشئونه ، كجغرافيته واقتصاديته واجتماعياته ، لأبناء مصر من طلبة العلم وعامة الشعب ، مع أن اهل السودان يكاد الواحد منهم لا تخفى عليه خافية من أمور مصر بحكم تطلعهم إليها وظمأهم إلى الاغتراف من مناهلها، ولايمان الأغلبية الساحقة منهم بضرورة وحدة

وادى النيل ، وبينما لا ينقطع سيل الزوار السودانيين لمصر طوال العام يندر أن يفكر مصرى فى زيارة السودان أو حتى فى قراءة الصحف السودانية لمعرفة أحواله ، مع ما لذلك من اثر عظيم فى تقوية الروابط وفى هذا الكتاب عرضت ما يأخذه علينا اخواننا السودانيين ، وللأسف لم يتغير اى شيء من هذه المآخذ الى الآن . .

فهم يأخدون علينا جهلنا بأمور السودان « من لغة ودين ومدنية وجغرافية » مستشهدين بأمثلة يخجل الانسان منها فى كثير من الأحيان ، بينما يعرف السودانيون اننا ملمون بالكثير من شئون البلاد العربية الأخرى بل ونعرف عن اوروبا وامريكا اكثر مما نعرف عن السودان » .

ويأخدون علينا إهمال الكثير من ابنائهم ممن ضحوا فى سبيل وحدة وادى النيل ، وكانت نتيجة ذلك اننا اصبحنا نوصف بنكران الجميل .

ويلومونا على اهمال ربط مصر والسودان بالمواصلات السريعة كالسكة الحديد من الشلال الى حلفا مع تخفيض الأجور ، ويعجبون من عدم تحسين الاذاعة اللاسلكية الى السودان ، ومن عدم القاء المحاضرات واصدار الكتب والنشرات لتنوير الاذهان فى مصر عنه .

وفى هذا الكتاب ، سردت تاريخ الاحتلال البريطانى له ، وتكلمت عن الأدب والفن فيه ، وتوقفت طويلا عند علاقة مصر به . . وخلصت فيه الى ان قضية السودان كانت دائما حجر عثرة فى جميع المفاوضات بين مصر وبريطانيا للجلاء عن وادى النيل . . فقد كنا دائما نرفض أن تكون مهمة الدفاع عن السودان واقعة عن بريطانيا وحدها فى حين ان لمصر حقا متساويا على الأقل مع حق بريطانيا وحدها .

لقد بدأت علاقة مصر وبريطانيا بالسودان من يوم ان وقعتا اتفاقية ١٩ يناير ١٨٩٩ ، والتى وقعها عن مصر بطرس باشا غالى ، ووقعها عن بريطانيا اللورد كرومر ، وقد كانت هذه الاتفاقية تقرن دائما بكلمة « المشؤومة » لأنها ابتكرت صيغة « الاحتلال المشترك » ، التى لم يعرفها العالم من قبل . . وقد كانت هذه الاتفاقية من وجهة نظر مصر بعد ذلك اتفاقية باطلة ، لأن مصر ساعة ان وقعتها لم تكن تملك وقتها اى حق فى عقد معاهدات تتنازل فيها عن أى جزء من اجزائها أو ادارتها ، فضلا على أنها كانت محتلة من الانجليز وهم الذين يسيطرون على مقدراتها .

وبعد توقيع هذه المعاهدة ، حاولت بريطانيا اخراج مصر من السودان ، والانفراد بحكمه ، وكانت حجتها فى ذلك ، كما قال « اللورد كرومر » ان رمال السودان تبتلع أموال مصر وتهدد خزائنها بالافلاس لكن محاولتها فى ذلك الوقت ، فشلت .

وعندما اغتيل سردار الجيش المصرى وحاكم السودان العام السيرلى استاك فى القاهرة فى نوفمبر ١٩٢٤ ، حاولت انجلترا ان تجد من هذا الحادث زريعة لطرد المصريين من السودان . . ولكن .·. سعد زغلول رفض هذا الاجراء ، وانذرها ، بعودة وحدات الجيش المصرى الى هناك خلال ٢٤ ساعة فقط . .

وكان سعد زغلول قبل هذا الحادث بشهور قد سافر الى لندن لمفاوضة رمزى ماكدونلد رئيس حكومة العمال ، وكانت قضية السودان احدى نقاط التفاوض التى حملها معه . وساعده على طرحها ، ما كان يتعرض له ابطال الحركة الوطنية السودانية من وحشية وقسوة على يد الانجليز وفى هذه المفاوضات أعلن سعد باشا تشبث مصر بالبقاء فى السودان ، وطالب ان يكون جزء من التاج المصرى ، وان يحمل ملك مصر ، لقب ملك مصر والسودان .
ورد عليه اللورد ماكدونالد قائلا :
ـ ان الحكومة البريطانية لا تترك السودان بحال وهى تقدر التعهدات الواجب تحملها والتى لا يمكن تركها من غير أن تصاب بريطانيا العظمى بخسارة عظمى .
وقال :

ـ وأستطيع أن أقول من غير تردد أن نظام السودان لن يسمح بتغييره ولا ان ينفذ ذلك التغيير من غير موافقة البرلمان .
كانت هذه الكلمات صدمة شديدة لسعد زغلول الذى ذهب حاملاً المطالب المصرية ، والتى تتلخص فى سحب جميع القوات البريطانية من الأراضى المصرية واقرار حقوق مصر فى السودان كاملة . . وكان الجواب الوحيد عند البريطانيين هو الرفض المطلق لهذه المطالب . . وفشلت المفاوضات بعد ثلاث جلسات فقط .

وعندما وقعت حكومة الوفد معاهدة ١٩٣٦ ، أصر مصطفى النحاس على أن تنص على عودة القوات المصرية الى السودان ، وعودة رجال الادارة المصريين الى

هناك ، مع الاحتفاظ بمسألة السيادة على السودان ، التى لم تسلم بها مصر لبريطانيا فى يوم من الأيام .

وعندما جاء اسماعيل صدقى وبدأ مفاوضاته مع بيغن ، كانت السودان إحدى نقاط هذه المفاوضات . . وقال اسماعيل صدقى :

ـ ان مستر بيغن دهش لاهتمامنا البالغ بالسودان ، فكان ردى عليه ، ان عدم الاهتمام هو الذى يدعو الى الدهشة .

وقال :

ـ وعندما احسست انهم يريدون استغلال هذا الاهتمام فى اظهارنا بمظهر المستعمر . أكدت له أننا لا نريد سوى استبقاء الوضع الذى سمح لنا بتقديم كافة صنوف المعاونة للسودان .

وفى هذه المفاوضات انتزعت مصر من الانجليز الاعتراف بوحدة وادى النيل ، شماله وجنوبه تحت التاج المصرى .

ولكن بعد أن وقع الطرفان مشروع المعاهدة بالأحرف الأولى فى اكتوبر ١٩٤٦ ، حتى استكثرت بريطانيا على مصر الاحتفاظ حتى بالسيادة الرمزية على السودان ، وبعد أيام ، طلبت أن يصدر بروتكول ينص على منح السودانيين الحق فى المطالبة بالاستقلال التام وحق الانفصال عن مصر .

ورفضت مصر . . وسقطت معاهدة صدقى ـ بيغن ، قبل أن توقع .

وفى ٨ يوليو ١٩٤٧ طالبت حكومة النقراشى ، فى عريضة قدمتها لمجلس الأمن ، بجلاء بريطانيا عن مصر والسودان جلاء تاما وانهاء النظام الادارى الحالى للسودان وقال النقراشى أمام مجلس الأمن :

ان البريطانيين قد توصلوا بالدعاية والبطش لاسكات جموع السودانيين الذين يطالبون بالوحدة مع مصر بل هم مضوا فى هذا السبيل الى حد اصدار البيانات الرسمية التى تحط من قدر مصر والمصريين وتشيع فى السودان رغبة الانفصال ، وحاولوا خلق جنسية سودانية مستقلة .

وفى مارس ١٩٥٠ ، وحتى نوفمبر ١٩٥١ ، تولى وزير الخارجية ، فى اخر حكومة وفدية ، محمد صلاح الدين ، تجديد المفاوضات مع بيغن ، وفى هذه المفاوضات أكد الجانب المصرى من جديد على ان مصر والسودان بلد واحد له تاج واحد هو التاج المصرى ، وقال د . صلاح الدين عن الأقلية الضئيلة التى تطالب بالانفصال :

« انه ليس بمستغرب ان توجد مثل هذه الأقلية فى السودان مع قيام ادارة ثنائية اسما ، انجليزية فعلا ، وجهت دائما وبخاصة فى السنوات الاخيرة كل همها الى تنفير السودانيين من مواطنيهم المصريين » .

وتوقفت مثل هذه المفاوضات ، عندما أعلن النحاس باشا الغاء معاهدة ١٩٣٦ ، وملحقاتها ، وإلغاء اتفاقية ١٩ يناير ١٨٩٩ . . وإصدار قانون بشأن نظام الحكم فى السودان . . ودعوة جمعية تأسيسية تمثل السودانيين لوضع دستور جديد لهم . . مع الاحتفاظ بالشئون الخارجية وشئون الدفاع والجيش والعملة لكى يتولاها ملك مصر والسودان باعتباره من الشئون المشتركة التى تهم شمال الوادى وجنوبه .
كان ذلك فى اكتوبر ١٩٥١ .

وفى الربع الأول من عام ١٩٥٢ ، رد الحاكم العام البريطانى على ذلك بتقديم مشروع دستور للحكم الذاتى للسودان ، وأعطى مهلة ستة شهور لتبدى الحكومتان المصرية والبريطانية ملاحظاتهما عليه . . وكانت المهلة تنتهى فى ٨ نوفمبر ١٩٥٢ . . وبعدها يتحول المشروع الى امر واقع . . وبعدها يتم تقرير مصير السودان فى ظل سيطرة الحكم البريطانى فقط وتصبح بريطانيا صاحبة النفوذ الاوحد هناك .
وكانت هذه المهلة فى وقت حرج وحساس جدا بالنسبة لمصر . .

فالأحكام العرفية مفروضة على مصر منذ ٢٦ يناير ١٩٥٢ بعد حريق القاهرة ، والمصريون جميعا مهتمون بمتاعبهم ومشاكلهم الداخلية ، وغير قادرين على النظر خارج حدودهم . . أو خارج أنفسهم .
وكنا فى تنظيم الضباط الاحرار نتحين الفرصة ، ونخطط للثورة .

ولم تكن لى علاقة بمسئول واحد فى حكومات تلك الأيام ، حتى يمكن أن أنبهه الى خطورة الوضع فى السودان ، كما سبق ان نبهت محمود فهمى النقراشى ، الذى كان يستشيرنى دائما فى كل مايتعلق بالسودان .
وكان علينا بعد ايام من الثورة ان نرد على الحاكم العام فيما اعلنه . . كان علينا ان نقول له ان الاتفاقيتين اللتين تدعم الحكم الثنائى فى السودان الغيتا . . وان دستور مصر يتعارض مع المشروع الذى يطالب به ، لان السودان فعليا تحت التاج المصرى .

على ان موضوع تقرير المصير لم يكن ليزعجنى ولايثير القلق فى نفسى ، فقد كنت أدرى الناس بالعلاقة الخاصة بين شعبى وادى النيل . . كما اننى كنت احترم ارادة شعب السودان تماما كما احترم إرادة شعب مصر .

وكانت نقطة الانطلاق فى تفكيرى هى « أن أحول بين السودان وبين الارتباط ببريطانيا عند تقرير مصيره . . فإذا تحقق هذا فإنه لايكون امامه الا احد حلين ، اما الارتباط بمصر فى صورة وحدة او اتحاد . . وأما الاستقلال . . والوصول ال هذه النتيجة فى أية صورة من صورها ينزع اقدام المستعمر من وادى النيل . . وهى خطوة سياسية عظمى ».

ورغم ذلك ، فاننا فى الحقيقة لم نفعل الكثير ليظل السودان ، كما كنت اتمنى ، متحدا مع مصر . . وكان اعضاء مجلس القيادة يضعون السودان فى ذيل قائمة اهتماماتهم ومتاعبهم . . وقد قالها عبدالناصر بصراحة : « اننى لا أخشى السودان الحر وإنما أخشى السودان المحتل ». . كما ان استراتيجيتى كانت فصل استقلال مصر عن استقلال السودان اثناء أية مفاوضات مع الانجليز .

وأذكر أننا طلبنا من حسين ذو الفقار صبرى ، قبل فوات المهلة التى حددها الانجليز ، ان يعد لنا مذكرة بشأن السودان ، وعندما إنتهى منها ، طلب منه صلاح سالم أن يطبعها على الرونيو ، لتوزيعها على أعضاء المجلس . . فذهب حسين صبرى الى امين شاكر وطلب منه طبع المذكرة ، فانزعج امين شاكر من حجمها ، وقال :

ـ كل الورق دا ؟

فرد عليه حسين صبرى :

ـ الله . . وهى مشكلة السودان تتحط فى سطرين !

فقال امين شاكر :

ـ اختصرها شوية !

وعندما رفض حسين ، قال شاكر :

ـ أمرنا لله . . ولكن باقول لك إية . . والله ماحد حيلاقى وقت يقرأها .

وكان عند أمين شاكر حق . .

فلا أعضاء المجلس قرأوا المذكرة ، ولا استمعوا اليه عندما قرأها عليهم الوحيد الذى فعل ذلك ، كنت أنا ، وحسين صبرى يعترف بذلك فى كتابه الذى صدر عن « ثورة يوليو واتفاقية السودان » ، وقال فيه :

« القلقلة من حولى تنذر بأن أعضاء المجلس قد ضاقوا ذرعا ، يتعجلون نهايه الجلسة فيفضوا وقد ازيحت عن كواهلهم أثقال تحملوها على مضض . . ثم يأتينى صوت محمد نجيب من بعيد كأنه عبر فواصل من الزمن ، انزاحت بى بعيدا عن حدود المكان . . اسمعه يشكرنى على « الصورة الكاملة الواضحة » ـ على حد قوله ـ التى قدمت ، وعلى « الجهد الصادق » الذى بذلته . . هى الكلمة التقليدية التى تلقى فى مثل هذه المناسبات إيذانا بانتهاء الجلسة . . إلا أنه أثلجنى ما لمست فيها من صدق وحرارة ، شأنها شأن الكلمات الرقيقة الأخرى » .

وانصرف الى جمع اوراقى المتناثرة ، وقد حطت على بلادة ، ولكنى افاجأ بصلاح سالم يجذبنى من ذراعى فينتزعنى من مكانى الى احد اركان القاعة حيث محمد نجيب وجمال عبدالناصر وقد انهمكا فى الحديث ـ ان صح ان يوصف ذلك ـ فقد لاحظت ان نجيب كان منفعلا بحماس ، فتتدفق على لسانه الكلمات ، بينما جمال عبدالناصر لا يكاد ينطق حرفا وانما ينصت فى سكون ، فيطرق برأسه بين الحين والحين . . لست ادرى اعن اقتناع بمضمون ما يقال ام استيعابا وتقييما لما كان يلقى على مسامعه من آراء . .

وما يقول حسين صبرى كان صحيحا .

فقد كنت متحمسا لمسألة السودان وكان عبدالناصر على ما يبدو يفكر فى مسائل اخرى .

وعندما وجدت حسين صبرى أمامى ، قلت له :

ـ عفارم عليك يا حسين ، تقرير مليان ، خلاص احنا بنرسل دعوات للأحزاب ونقابلهم ونتناقش معهم . . . وإن شاء الله ربنا يوفقنا !

وكما قال حسين صبرى بعد ذلك وهو يتحدث عن شعوره :

« دب فى قلبى الأمل ، بعد ان كانت راودتنى الهواجس بأنى قد فشلت » !

كان علينا أن نجمع السودانيين بمختلف أحزابهم على موقف واحد يتعاونون فيه مع مصر . . ودعوناهم فعلا من اجل ذلك . . ورحبت الاحزاب السودانية بالمبادرة المصرية . . بما فى ذلك الاحزاب التى تدعو الى الاستقلال ، وتغالى فى هذه الدعوة .

جاء السيد عبدالرحمن المهدى . . واعتذر السيد على الميرغنى عن عدم حضوره ، لأسباب خاصة ، فى فصل الشتاء . . وأجل حضوره الى فصل الصيف .

وكان كل من جاء من السودان من سياسيين وضباط وموظفين ، من اصدقائى ومعارفى وزملاء دراستى . . وكانت علاقتى بهم قوية جدا ، وكانوا لايمكن ان يزوروا مصر الا والتقى بهم . . « وأذكر أنى دعوت السيد عبد الرحمن المهدى لتناول الشاى بمنزلى فى شارع قصر العينى عند زيارته لمصر عام ١٩٣٧ فقبل الدعوة وحضر ومعه الوفد المرافق له . . وكانت هذه هى الزيارة الخاصة الوحيدة التى قام بها فى مصر .

وتوليت مع فريق من المفوضين ، مناقشة وفود الاحزاب السودانية . . وكان هذا الفريق يتكون من على ماهر ، ود . عبد الرازق السنهورى ، وصلاح سالم ، وحسين ذو الفقار صبرى ، الشقيق الأكبر لعلى صبرى . . وانتهى الفريق من المفاوضات ، الى قرار بإعداد مذكرة مصرية بخصوص السودان ، كلف حسين صبرى بإعدادها . . لكن . . المذكرة لم تعجب د . السنهورى فجرت مشادة حادة بينهما فى مكتبى وبحضور صلاح سالم . . كان السنهورى يريد ان ينص فى المذكرة على ان لمصر حقوق سيادة فى السودان . . على اساس ان جميع العهود التى سبقت قيام الثورة كانت تقول بذلك . .

وكان حسين صبرى يرى ان هذا النص شكليا ، لاداعى له ، وان واقع اليوم فى السودان تخطاه منذ فترة طويلة . . وان هذا هو الحل الوحيد لجذب القوى السودانية ، للتحالف مع مصر ، ضد النفوذ البريطانى . .

لكن هذا الخلاف فى الرأى ، لم يناقش بالطريقة العادية ، فى الحوار وانما نوقش بطريقة اترك للآخرين وصفها . .

قال حسين صبرى :

ـ يادكتور سنهورى ، خروج الانجليز من السودان هو بيت القصيد . . وهذه المذكرة هى سبيلنا الى ذلك ولاسبيل سواها فى ظل ما تحيط بنا من ظروف . . متاكتفين مع السودانيين ، فنكسب ثقتهم والا تحولنا الى اعداء لهم .

فقال له السنهورى :

ـ اسمع ياحسين يا ابنى دول بيضحكوا عليك . . دى الاعيب سياسية بكرة تفهمها لما تكبر . . بيستغلوك وانت مش حاسس .

فغضب حسين من كلام السنهورى ، ورد عليه فى حدة . . وانت ايش عرفك بالسودان هو انت تعرف حاجة عن السودانيين ؟

وانتهت هدة الازمه بقرار من مجلس الثورة ، لابعاد السنهورى عن السودان ومشاكله ، والاكتفاء بما يراه صلاح سالم وحسين صبرى . . واذا كنت قد فشلت فى توحيد وجهات النظر المصرية بالنسبة للسودان ، فقد نجحت مع السودانيين ، واستطعت توحيد الاحزاب السودانية لتتفق على رأى واحد . .

والتقيت بعبد الرحمن المهدى ، فى سراى لطف الله عمر الخيام ـ ماريوت الان وتوصلت معه الى اتفاق يقبل به نتيجة الاستفتاء على تقرير المصير .

كما وافقت معظم الأحزاب السودانية ، على تفويض لجنة ثلاثية مكونة من الدرديرى احمد ، وخضر حمد ، وميرغنى حمزة ، لاعلان قيام حزب سودانى واحد ، يمثل كافة التيارات السودانية التى تميل للاتحاد مع مصر . .

وكان التفويض يقول :

« أقبل قيام الحزب الواحد بأى وضع ترتضيه اللجنة الثلاثية » . .

ووقع على هذه العبارة : محمد نور الدين . . حماد توفيق . . درديرى اسماعيل درديرى محمد عثمان . . الطيب محمد خير . . اسماعيل الازهرى . . خضر حمد . . مبارك زروق . . خضر عمر . . على الشيخ بشير . . ميرغنى حمزة . . يحيى الفضلى . . وانا وصلاح سالم وحسين ذو الفقار صبرى .

كان ذلك فى ٣٠ اكتوبر ١٩٥٢ . .

وفى ٣ نوفمبر وضع ميثاق اعلان الحزب الموحد ، ووقع كل هؤلاء فى بيتى على قيام الحزب الوطنى الاتحادى . . الذى ضم كافة الاحزاب الاتحادية قبل بدء المباحثات المصرية ـ الانجليزية .

وأذكر أننى قلت ساعتها للحاضرين :

ـ ان المرء عندما ينظر الى خريطة النيل ، فأنه سيدهش عندما يكتشف انها مثل شجرة النخيل . . فى القمة الخضرة والخصوبة حيث دلتا النيل تبدو كفروع اوراق النخيل الرفيعة . . ثم يأتى النهر الذى ينحنى كجزع النخلة قليلا الى الصحراء . . وفى الجنوب ، حيث الخرطوم ، وحيث فرعى النيل الازرق والأبيض وما يخرج منها من فريعات مائية ، تبدو مثل جذور النخلة ، الضاربة فى عمق الاراضى السودانية .

والنيل على هذا النحو يحمل الماء ، من الجذور ، عبر الجزع ، الى الفروع والاوراق ، لكى تثمر النخلة محصولا وفيرا وشهيا ، يطعمنا ، ويغنينا عن سؤال اللئيم . .

لذلك فالسودان يعتبر متكاملا تكاملا طبيعيا مع مصر . . ووحدة وادى النيل هى امر واقع . . ولو تضافرت الجهود والقوى فإن الأمانى القومية لشمال الوادى وجنوبه يمكن ان تتحقق .

وقلت لهم :

ـ اننى بالرغم من كونى مصريا ، ولست سودانيا ، الا اننى اشعر بحنين لهذه الارض التى ترعرعت فيها ونشأت عليها ورويتها بدماء أجدادى .

وصفق الحاضرون لكلماتى . .

واتفقوا على أننى شاعر ولست رجل سياسة !

واختار الحاضرون اسماعيل الازهرى رئيسا للحزب . ومحمد نور الدين نائبا له ،

ونص دستور الحزب على جلاء الانجليز وقيام اتحاد مع مصر بعد تقرير المصير . .

وكما قلت من قبل :

كانت هذه اللحظات من امتع لحظات حياتى . . التقى فيها مع الاشقاء فى الجنوب ولهم فى قلبى اعز مكان . . وأشهدهم يحققون وحدة وطنية تقرر الابتعاد عن الاستعمار البريطانى ، والاتحاد مع مصر . وصدق إيمانى فى ان مصر والسودان لايمكن للاستعمار ان يفصل بينهما .

واتفقت كلمة جميع الاحزاب السودانية على ان يقتصر اختيارهم عند تقرير المصير على الخيار بين الاتحاد مع مصر او الاستقلال عنها دون اى ارتباط بدولة اخرى . .

وأن يكفل للسودان حرية الاختيار فى تحديد سلطات الحاكم العام وسودنة الادارة وجلاء القوات البريطانية قبل إجراء الانتخابات الخاصة بالجمعية التأسيسية التى يناط بها تقرير المصير . .

وبارك المهدى والميرغنى كلاهما هذا الاتفاق .

وهكذا وجد الانجليز أن الأمر الذى استعدوا لتدبيره منذ سنوات قد انقلب عليهم خلال اسابيع . . واصبحت ورقة « تقرير المصير » فى يدنا بعد ان كان فى يد بريطانيا

فقد كانت بريطانيا ، كما شرحت ، تربط موضوع السودان دائما ، بشرطين : اولهما : فصل مشكلته عن مشكلة مصر ، وثانيهما : حق السودان بمفرده فى تقرير مصيره . . وكان الشرطان يهدمان اى مفاوضات معها دائما . .

وكان علينا ان نزيل هذه العقبات او نحطمها . .

وتم ذلك يوم ارسلت الى المسئولين البريطانيين المذكرة التى اعدت باسم مصر ، وتضمنت :

١ ـ تمكين السودان من ممارسة الحكم الذاتى .

٢ ـ تهيئة الجو المحايد تمهيدا لانتخابات تقرير المصير .

فأسقط فى يد بريطانيا . ولم تستطع المراوغة . . وكل مافعلته هو نقل الفتنة من شمال الوادى وجنوبه . . الى شمال السودان وجنوبه . . وبدل ان كانت المشكلة مع مصر اصبحت مع الجنوب السودانى .

وكان لابد من اعلان هذا الموقف داخل مصر ، لتهيئة الرأى العام لتقبل فكرة انفصال السودان ، وكانت فكرة من الصعب تقبلها ، أو حتى التفكير فيها فى ذلك الوقت . . فكلف صلاح سالم ، حسين ذو الفقار صبرى بالاتصال بمصطفى أمين ، لتنفيذها . .

وبدأت المفاوضات مع الانجليز بشأن السودان . .

كنت على رأس الوفد المصرى ، وكان معى صلاح سالم ، وحسين صبرى ، ود . محمود فوزى ، ود . حامد سلطان ، وعلى زين العابدين . . وكان يرأس الوفد البريطانى سير رالف ستيفنسون ، وكان معه مستر كروزيل الوزير المفوض ، ومستر باوزر السكرتير الاول بالسفارة . . وفى صباح ١٢ فبراير ١٩٥٣ وقعنا اتفاقية السودان . .

وجاء فى ديباجة الاتفاقية :

لما كانت الحكومة المصرية والمملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وشمال ايرلندا المسماة فيها بعد بحكومة المملكة المتحدة تؤمنان ايمانا ثابتا بحق الشعب السودانى فى تقرير مصيرة وفى ممارسته له ممارسة فعلية فى الوقت المناسب ، وبالضمانات اللازمة ، فقد اتفقنا على ما يأتى :

١ ـ رغبة فى تمكين الشعب السودانى من ممارسة تقرير المصير فى جو حر محايد ، تبدأ فى اليوم المعين بالمادة التاسعة الواردة فيها بعد فترة انتقال يتوفر للسودانيين فيها الحكم الذاتى الكامل .

٢ ـ لما كانت فترة الانتقال تمهيدا لانهاء الادارة الثنائية انهاء فعليا فانها تعتبر تصفية لهذه الادارة وتحفظا ابان فترة الانتقال بسيادة السودان للسودانيين حتى يتم لهم تقرير المصير .

٣ - يكون الحاكم العام إبان فترة الانتقال ، السلطة الدستورية العليا داخل السودان ويمارس سلطاته وفقا لقانون الحكم الذاتى بمعاونة لجنة خماسية تسمى لجنة الحاكم العام .
٤ - تشكل هذه اللجنة من اثنين من السودانيين ، وعضو مصرى وعضو من المملكة المتحدة ، وعضو باكستانى . .
٥ - لا يمارس الحاكم العام سلطاته بما يتعارض مع وحدة السودان بوصفه إقليما واحدا .
٦ - يظل الحاكم للسودان مسئولا مباشرة أمام الحكومتين المتعاقدين فيما يتعلق بالشئون الخارجية ، وأى تغيير يطلبه البرلمان السودانى واى قرار تتخذه اللجنة يرى فيه الحاكم تعارضا مع مسئولياته .
٧ - تشكل لجنة مختلطة للانتخابات من سبعة أعضاء ثلاثة منهم من السودانيين وعضو مصرى وعضو من المملكة المتحدة ، وعضو أمريكى ، وعضو هندى . .
٨ - رغبة فى تهيئة الجو الحر المحايد اللازم لتقرير المصير تشكل لجنة للسودنة تتألف من عضو مصرى وعضو من المملكة المتحدة وثلاثة أعضاء سودانيين .
٩ - تبدأ فترة الانتقال من يوم توقيع الاتفاقية . . ومع مراعاة إتمام السودنة تتعهد الحكومتان المتعاقدتان بإنهاء فترة الانتقال بأسرع ما يمكن . . وينبغى على أية حال ألا تتعدى هذه الفترة ثلاثة أعوام وتنتهى بإصدار قرار من البرلمان السودانى يعرب فيه عن رغبته فى اتخاذ التدابير للشروع فى تقرير المصير .
١٠ - عند إعلان الحكومتين المتعاقدتين رسميا لهذا القرار تضع الحكومة السودانية القائمة آنذاك مشروعا بقانون لانتخاب جمعية تأسيسية ، وتخضع التدابير التفصيلية لعملية تقرير المصير إلى هذه الجمعية .
١١ - تنسحب القوات العسكرية المصرية والبريطانية من السودان فور إصدار قرار البرلمان السودانى برغبته فى الشروع فى اتخاد التدابير لتقرير المصير وتتعهد الحكومتان المتعاقدتان بإتمام سحب القوات من السودان فى مدة لا تتعدى ثلاثة أشهر .
١٢ - تقوم الجمعية التأسيسية بتقرير مصير السودان وبإعداد دستور له ، ويتقرر مصير السودان إما بأن تختار الجمعية التأسيسية ارتباط السودان بمصر على أية صورة ، وإما بأن تختار الجمعية التأسيسية الاستقلال التام .

١٣ ـ تتعهد الحكومتان المتعاقدتان باحترام قرار الجمعية التأسيسية فيما يتعلق بمستقبل السودان وتقوم كل منها باتخاذ جميع الإجراءات اللازمة لتنفيذ القرار .
وقد شكلت لجنة الحاكم العام الخماسية ، من الدريرى عثمان وابراهيم احمد (السودان) حسين ذو الفقار صبرى (مصر) وجرافتى سميث بريطانيا وسيان ضياء الدين (باكستان) .
وكان العضو المصرى فى لجنة الانتخابات هو عبد الفتاح حسن .

وبعد التوقيع على هذه الاتفاقية تبادلنا أنا والسفير رالف ستيفنسون بعض الخطابات بشأنها . . وكان أولها يوم توقيع الاتفاقية نفسها . . وكانت تقول :
« حضرة صاحب السعادة :
بالإشارة إلى المادة ٦ من الاتفاق المبرم بيننا فيما يتعلق بالشئون الخارجية أتشرف بأن أبدى بأنه طبقا للاتفاق الذى تم بيننا تعتبر الحكومة المصرية ، مما يدخل ضمن الشئون الخارجية أية عمليات تجارية تقوم بها حكومة السودان وترى إحدى الحكومتين أن لها مساسا مباشرا بسياستها الخارجية .

وانى أرجو سعادتكم أن تؤيدوا أن هذا هو التفسير الصحيح لاتفاقنا وان تنظر الحكومة البريطانية إلى هذه العمليات التجارية على هذا الاعتبار .
وإنى انتهز هذه الفرصة لأجدد لسعادتكم تأكيد أسمى احترامى .
توقيع (محمد نجيب)
لواء (أ . ح)

فأجاب السفير البريطانى بالرسالة التالية :
« حضرة رئيس مجلس الوزراء
« بالإشارة إلى كتابكم المؤرخ فى ١٢ فبراير أتشرف بأن أؤيدكم أن ما جاء بكتابكم هو التفسير الصحيح للاتفاق الذى تم بيننا وأن حكومة جلالة الملكة فى المملكة المتحدة ستعتبر مما يدخل ضمن الشئون الخارجية أية عمليات تجارية تقوم بها الحكومة السودانية وترى أحدى الحكومتين أن لها مساسا مباشرا بسياستها الخارجية .
ولى الشرف أن اقدم لكم أسمى الاحترام .
خادمكم المطيع
توقيع (رالف اسكرين ستيفنسون)

ثم بعثت له برسالة اخرى ، تقول :

« حضرة صاحب السعادة

بالإشارة إلى الاتفاق المبرم بين حكومتينا بشأن السودان أتشرف بأن ارجو سعادتكم تأييد ما تم التفاهم عليه بيننا من أن ضمن المسائل التى ستبحثها الهيئة الدولية التى ستشكل فيها بعد ، مسألة القيادة العليا للقوات المسلحة السودانية عند إتمام سحب القوات المسلحة المصرية والبريطانية من السودان وفى الفترة التى تعقب هذا الانسحاب .

وانى أنتهز هذه الفرصة لأجدد لسعادتكم توكيد أسمى احترامى » .

توقيع (محمد نجيب)

لواء (أ . ح)

فأجاب السفير البريطانى بالرسالة التالية :

« حضرة رئيس مجلس الوزراء

بالإشارة إلى كتابكم المؤرخ ١٢ فبراير ، أتشرف بأن أؤيد ما تم التفاهم عليه بيننا من أن ضمن المسائل التى ستبحثها الهيئة الدولية التى ستشكل فيها بعد مسألة القيادة العليا للقوات المسلحة السودانية عند إتمام سحب القوات المسلحة المصرية البريطانية من السودان وفى الفترة التى تعقب هذا الانسحاب .

ولى الشرف بأن اكون مع اسمى الاحترام

خادمكم المطيع

توقيع (رالف اسكرين ستيفنسون)

وفى مساء نفس يوم التوقيع عل الاتفاقية أذعت على العالم بياناً ، قلت فيه :

« تم اليوم بيمن الله وتوفيقه توقيع الاتفاق بين الحكومتين المصرية والبريطانية لتصفية الادارة الثنائية فى السودان وإقامة حكم ذاتى كامل توطئة لممارسة السودان حق تقرير المصير فى جو من الحرية التامة والحيدة الكاملة . ويسعدنى أن أذيع هذا النبأ السار الذى يدخل السرور على قلوب السودانيين وإخوانهم من المصريين .

إن هذا الاتفاق يفتح صفحة جديدة فى علاقات المصريين بإخوانهم السودانيين صفحة إخاء وثيق ومحبة دائمة ، كما يفتح صفحة جديدة فى علاقات مصر بالمملكة المتحدة تعيد الثقة بينهما ، سيكون لها اثرها الطيب فى حسم باقى المسائل المعلقة بين البلدين . ولنا الحق أن نتطلع من هذه الدقيقة إلى ما يستوجبه هذا الاتفاق

الذى وقعنا عليه اليوم من نية صادقة فى تنفيذه وتصميم اكيد على الاحتفاظ بالروح الودية الخالصة التى أملته والتى كان وحيها الأول صالح السودانيين وكرامتهم . فالقضية التى حسمها هذا الاتفاق هى قضية السودان أولا ولذلك فقد توخت مصر فى جميع الخطوات التى خطتها فى هذا الشأن الاتصال الوثيق الدائم بالسودانيين جميعا ومن ثم وقفت مصر موقف المطالب بما أجمع عليه السودانيين أنفسهم ، ذلك الإجماع الذى كان له أثر حاسم فى الوصول إلى الغرض المنشود وأن مصر ستظل وفية للسودان وعلى استعداد كامل فى كل وقت أن ترفع صوتها وتبذل جهودها من أجل السودانيين ومن أجل مستقبلهم وتقف صامدة إلى جانبهم وحماية حقوقهم » .

ووجهت بيانا آخر من الراديو . . وجهت التحية فيه للسودانيين ولزعمائهم . . وفرحت السودان بالاتفاقية واعتبر يوم التوقيع عليها يوم عيد ، ويوم عطلة رسمية . . ولم ينقطع سيل التهانى من العالم كله . . ووصفت أمريكا الاتفاقية بأنها ذات اهمية عظيمة « اذ أنهت مشكلة طالما ظلت مصدرا لتعقيد العلاقات بين بريطانيا ومصر خلال سنوات طويلة » .

وقال السفير رالف ستيفنسون فى رسالة نشرتها له الصحف المصرية :

« لقد ساعد على الوصول إلى هذا الاتفاق التفاهم المتزايد بين الطرفين وعلى الأخص ما أبداه اللواء محمد نجيب وحكومته من بعد النظر والسياسة فى مواجهة ومعالجة الموضوع أكثر من حكومات مصر السابقة ، فى مصر ، فقد دل بوجهة نظرة على أن تظل السيادة محتفظا بها للسودان ، وبقبوله أن يقرر السودانيون مستقبلهم بحرية ، على أنه والحكومة البريطانية يهتمان أبلغ الاهتمام بمصالح الشعب البريطانى » .

ورغم ذلك ، لم يخل الاحتفال من الغمز واللمز ، خاصة من رجال السياسة المصرية القدامى الذين لعبوا دورا فى التفاوض مع بريطانيا حول السودان ، وأصروا على وحدة التاج المشترك ، مثل إسماعيل صدقى ، ومحمد صلاح الدين وغيرهما .

وتحول الغمز واللمز من جانبهم إلى نقد واضح ، بعد أن بدأت الانباء ترد عن تعسف البريطانيين مع السودانيين ، بعد أيام من توقيع الاتفاقية . .

وقد طلب منى الصحافيون أن أدلى إليهم بكلام عن هذا التعسف ، فقلت لهم فى ١٠ مارس ١٩٥٣ :

« إنه لمن دواعى الأسف الشديد أنه قبل أن يجف المداد الذى كتبت به الاتفاقية التى عقدت بين مصر وبريطانيا بشأن السودان ترد إلينا من مختلف أنحائه شكاوى صارخة عن المعاملة السيئة التى يعامل بها الإداريون البريطانيون فى الاقاليم الجنوبية من السودان بعض الزعماء الذين وقعوا اتفاقات معنا وكثيرين غيرهم من الاهلين .

« وقد ورد فى هذه الشكاوى أن زعماء عديدين ألقوا فى غياهب السجون وأن الاداريين البريطانيين فى السودان عادوا إلى سيرتهم الأولى من الالتجاء إلى التهديد والوعيد وجميع هذه الأعمال لا تتفق فى شىء مع ما تنص عليه الاتفاقية التى قلنا عنها بعد توقيعها إن العبرة فى تنفيذها تنفيذا دقيقا . غير أن الإداريين البريطاييين لم يراعوا كل ذلك إذ خرجوا على الاتفاقية وبذلك أقاموا الدليل الملموس على عدم توفر حسن النية عندهم وهذا ما يحملنا من غير شك على عدم الثقة بهم والاطمئنان إليهم فى إبرام أية معاهدة معهم » .

وقام الحاكم العام فى السودان بمحاولات كثيرة لتعطيل تنفيذ الاتفاقية . . حتى أنه كان يعرض الخلافات التى تنجم عن تنفيذ بنودها على القضاء العالى الذى كان يتولاه البريطانيون . . وحتى يعطل لجنة السودنة منح اللجنة الخماسية المسماة بلجنة الحاكم اجازة لمدة ٤ شهور ، ليتجول أعضاؤها على حساب الحكومة السودانية فى أرجاء السودان بحجة معرفته والاطلاع على أحواله .

ودعم الحاكم العام موقف حزب الأمة . . وكان حزب الأمة يقود تيار الاستقلال « لجنه السودنة » عن مصر ، فى مواجهة الحزب الوطنى الاتحادى الذى شكل مؤخرا ، وطالب بالاتحاد الفيدرالى مع مصر . .

وقد فاز الحزب الوطنى الاتحادى بأغلبية ساحقة فى اول برلمان سودانى ، افتتح فى ٢ يناير ١٩٥٤ ، وألف إسماعيل الازهرى أحد مؤسسيه ، أول وزارة سودانية فى تاريخ السودان الحديث .

ويبدو أن نجاح الحزب الوطنى الاتحادى أستفز حزب الأمة والانجليز ، فظهر اتجاه جديد فى داخله ، لا يطالب باستقلال السودان عن مصر وبريطانيا ، وإنما يطالب باستقلال السودان عن مصر فقط ، وأن يكون هذا الاستقلال تحت رئاسة

حاكم عام بريطانى ، وليكن اللورد مومنتباتن الحاكم العام للهند بعد استقلالها . . لكننا كثفنا كل جهدنا مع الزعماء السودانيين لقتل هذه الفكرة قبل أن تتحول إلى واقع ، يدمر خطتنا التى حققت ، حتى الآن ، النجاح الذى كنا ننشده .

كانت خطتنا تدعيم الحزب الوطنى الاتحادى ، لعودة السودان الى مصر ، بعد أن يخرج منه الانجليز . .

وكان وصول إسماعيل الأزهرى إلى رئاسة الحكومة بشرة خير لنا . .

لكن . .

نجاحنا فى هذه الخطوة كان النجاح الأول والأخير فى السودان . .

فكما قلت : كان مجلس الثورة يضع السودان فى قائمة اهتماماته . . كما أن عبد الناصر كان يعتبر السودان عبئا على مصر يحسن ازالته عن كاهلها ثم إن المتاعب الداخلية إستنفدت كل طاقاتنا وأثرت بالطبع على الموقف فى السودان وعلى مشاعر السودانيين . . وكانت اخبار الانقسامات والخلافات داخل مجلس الثورة ، والتى أدت إلى استقالتى فى فبراير ١٩٥٤ ، تصل إلى جنوب الوادى ، وتصبح حديث الناس هناك ، ومثار قلق واضطراب لزعمائهم . . خاصة زعماء الحزب الوطنى الاتحادى ، أو الاتحاديون كما كان يطلق عليهم . . الأمر الذى أثر عليهم ، وفتت اتحادهم ، وضاعف من قوة التيار المضاد الذى تؤيده بريطانيا ، التى احست ان مصر ستكسب السودان لصالحها ، وظهرت النتيجة النهائية لكل هذا ، عندما جرت انتخابات الجمعية التأسيسية السودانية بعد فترة الإنتقال ، وأعلنت استقلال السودان عام ١٩٥٦ . . ولم يسع الحكومة المصرية فى أيامها إلا أن تعترف بهذا الاستقلال وتباركه .

وصدم الشعب المصرى بهذه النتيجة . . لكن . . جمال عبد الناصر وأعضاء المجلس ، لم يصدموا ، فعندما اجتمعوا ، بعد اعتقالى بشهور ، فى ٢٥ أغسطس ١٩٥٥ لبحث موضوع السودان ، قال صلاح سالم بصراحة :

ـ السودان . . ضايع . . ضايع

وقال :

ـ الكل هناك يجمع على الاستقلال ويرفض الاتحاد مع مصر بسبب الأخطاء التى وقعنا فيها .

واضاف بعد أن نظر إلى جمال عبد الناصر :
ـ إننى اقترح عليك يا جمال أن تسافر فورا لتعلن بنفسك استقلال السودان بمناسبة اجتماع البرلمان السودانى ، لتصبح بذلك بطل استقلال السودان .

لكن جمال عبد الناصر ، كما قال عبد اللطيف البغدادى الذى شهد الاجتماع ، رفض هذا الرأى ، وشاركه فى الرفض باقى أعضاء المجلس حتى لا يصدم الشعب المصرى الذى ظل يعتقد أن الاتحاد مع السودان سيتم فعلا ، كما يقولون له ليل ، نهار ، فى أجهزة الإعلام .

بل إن من جاء بعدى ، لم يكتف بفصل السودان عن مصر ، بل ووصل إلى حد التفريط فى أرض مصر والتنازل عنها للسودان . . وأقصد بذلك ، مساحة الأرض التى تصل إلى ۱۸۰۰ كيلو متر مربع ، عند بئر الشلاتين ومرسى حلايج ، وتقع بين البلدين . . فقد استولى الانجليز على هذه الأرض عام ۱۹۰۲ ، بعد أن تصوروا أن بها ذهبا ، واستندوا فى تصورهم على أثار قدماء المصريين التى كانت موجودة هناك . . وعندما فشل الانجليز فى العثور على الذهب ، طالبوا بضم هذه المنطقة للسودان ، بحجة أن بها قبائل البشارية السودانية ، وفى المقابل أخذوا من السودان ۱۸۰ كيلو مترا مربعا ، وهى منطقة تعيش فيها قبائل العبابدة ، بحجة أنها قبائل مصرية وضموها إلى مصر . . واعترفت مصر بذلك بعد ازمة ۱۹۵۸ بين مصر والسودان ، والتى كاد عبد الناصر فيها ان يحارب السودانيين .

إن مشكلة جمال عبد الناصر وصلاح سالم ، وباقى مجلس الثورة ، مع السودان ، هى أنهم لم يعرفوا ، ولم يفهموا أهله ، ولم يتصوروا أهميته بالنسبة لمصر . . فتصرفوا وكأنهم سياح وليسوا أبناء واد واحد .

كما أنهم فعلو المستحيل لنقل خلافاتنا الداخلية إليه . . وتصويرى عند السودانيين فى صورة الديكتاتور الذى يريد أن يضع كل شيء فى يده .
فحدث مرة أن جاء صديق سودانى يسألنى :
ـ لماذا تعترض يا نجيب بك على تعيين عبد الحكيم عامر قائدا عاما للقوات المسلحة ؟
وقبل أن أرد ، قال :

ـ اننا نخشى أن تجمع كافة السلطات فى يدك ، ونخش أن تكون المطالبة باتحاد السودان مع مصر تأكيدا لهذه الرغبة !
ولم أرد . .
فإلى هذا الحد كانوا يشوهون صورتى . .
والغريب أن قرار عبد الحكيم لم يكن صدر بعد . .

وعرفت أن صلاح سالم همس لصديقى السودانى ، أو لغيره ، بكلمات تصور أنها ستبقى سرا لا يصل إلى . . ولم يعرف صلاح سالم أن السودان بلد ، بحكم نقاء اهله ، لا يخفون فى صدورهم أى شىء . . وما فى قلبهم على ألسنتهم .
وصلاح سالم سافر الى السودان اكثر من مرة . .

وتصور أنه بالرقص والنقود يمكن أن يكسب السودانيين . . وكانت النتيجة أن بعثر النقود . . وبعثر احترامنا فى السودان . . تصور أنه يمكن أن يرشى السودانيين . . ولكنه كان مخطئا . .

كذلك تصور أنه يمكن استمالة زعمائه ، باستضافتهم فى مصر ، ومنحهم البيوت والفيلات . . وقد بنى هذا التصور الخاطىء بعد أن نجح فى أخذ اعتراف من على المرغنى بوحدة وادى النيل ، بعد أن ظل يرفض الاعتراف بذلك . .
وكان سر هذا التحول فى موقف هذا الرجل الذى لم يكن من أصل سودانى ، السرايا التى أعطوها له فى الاسكندرية . . واتضح فى النهاية أنه أحد عملاء المخابرات البريطانية .

هذا فى الوقت الذى كان صلاح سالم يتعامل بسخافة مع أنصار الاتحاد الحقيقيين مع مصر . .
ومن سخريات القدر أن يسعى عبد الناصر ورفاقه إلى الوحدة مع سوريا ، ويفعل المستحيل لفك الوحدة مع السودان . . رغم أن الوحدة مع السودان أمر طبيعى ، والوحدة مع سوريا هى وحدة بين قطرين متباعدين جغرافيا ونفسيا .

وبعد صلاح سالم ، سافر عبد الحكيم عامر ، بعد أن أصبح قائدا عاما للقوات المسلحة ، الى السودان . .
وفى السودان ، تصور البعض أن عبد الحكيم عامر هو أنا فأخذوه بالأحضان

وقررت أن أسافر أنا إلى السودان ، لأول مرة ، بعد الثورة ، يوم أول مارس ١٩٥٤ للمشاركة فى احتفالات السودان بافتتاح أول برلمان هناك . .

وصلت الطائرة إلى الخرطوم ، وفوجئت بالآلاف من أبناء الجنوب ، بملابسهم البيضاء ، يحتشدون فى المطار ، قبل ساعات من هبوط الطائرة . . كنت فى هذه اللحظة ، قد مر على ٣٠ سنة لم أر فيها السودان ، وفى هذه اللحظة كان قلبى يخفق فرحا ، لأننى سأرى السودان وألتقى بذكرياتى فيه ، بعد كل هذه السنين . . ولكن ما أن نزلت من الطائرة الى ارض المطار ، حتى فوجئت بمظاهرة كبيرة تهتف فى وجهى :

« لامصرى ولابريطانى . . السودان للسودانى » .

وفى الزحام وقع الكاب . . ثم جاءوا إلى به . . واستعرضت حرس الشرف وخرجت من المطار ، بعد أن التقيت بكبار المستقبلين ، وكان منهم رجال الحزب الوطنى الاتحادى . . والسيد صادق المهدى الذى حمل لى تحيات والده السيد عبد الرحمن المهدى .

وفى الحقيقة انا لم أعتبر هذا الهتاف ، هتافا معاديا ، أو مثيرا ، فقد كان هذا مانريده فعلا . . السودان للسودانى . . لا لمصرى ولا لبريطانى .

وقابلت الحاكم العام البريطانى ، الذى ، حاول إقناعى بأنها مظاهرات خطيرة ، وهتافات تستحق أن نواجهها بشدة .

قال لى :

ـ شوف بيقولوا إيه . . إنهم يهتفون ضد بلدينا .

قلت له :

ـ عندهم حق ، فما يقولونه هو الحقيقة .

وعرفت وأنا عند الحاكم العام أن البوليس اشتبك مع المتظاهرين ، وأدى ذلك إلى تساقط عدد من القتلى والجرحى ، قدر بحوالى ٧١ قتيلا و ١٠٧ جرحى .

كنا نتناول الإفطار عندما وصلتنا هذه الأنباء ، وساعتها قلت للحاكم العام :

ـ أنت السبب !

لكنه أنكر صلته بما حدث ، وحاول إقناعى بأنه يرتعش من الخوف .

وقبل أن نكمل كلامنا ، كان المتظاهرون يحيطون بالقصر الذى نجلس فى

داخله ، فوجدها الحاكم البريطانى فرصة ليندمج فى الدور الذى يلعبه أمامى . .
فقال فى فزع كاذب :
ـ دول حيرمونا فى البحر !
فقلت له :
ـ اترك لى هذه المشكلة !
وبدأت أتصل تليفونيا بالسيد عبد الرحمن المهدى . وفشلت . . تسع مرات أحاول ، وفشلت . . فى كل مرة كنت أسمع فيها صوته تقطع المكالمة . . وعرفت أن الأمر مدبر لكى لا تنفض المظاهرات .

وتأكد لى ذلك ، عندما رفض الحاكم العام أن أخرج إلى شرفة القصر وأكلم المتظاهرين ، بحجة المحافظة على حياتى . . لكننى خرجت إلى الجماهير وخطبت فيها . .
قلت لهم :
ـ إن الله كفى المؤمنين شر القتال . . وما تفعلونه لن يجر سوى المصائب لكم . .
وما أن بدأت الجماهير تهدأ وتستجيب حتى هاجمتها قوات البوليس مرة أخرى دون أى مبرر ، فمات ١٢ شخصا وجرح آخرون . . فتجددت المظاهرات مرة أخرى ، وتضاعفت شراستها .

كانت مؤامرة رتبها سلوين لويد وكيل وزارة الخارجية البريطانية الذى وصل الخرطوم بدعوى المشاركة فى الاحتفالات . لكنه لم يبرح مكانه ولم يظهر أمام الناس ، حتى حملته الطائرة الى لندن .
وشارك فى تنفيذ المؤامرة الحاكم العام البريطانى . . وساعدهما الأنصار الذين لم ينجحوا فى الانتخابات .
وكان الهدف منها ضرب أى اتجاه فى السودان للاتحاد مع مصر .

وفشلت احتفالات افتتاح البرلمان . . وألغيت الجلسة الافتتاحية . . وقررت العودة إلى مصر فى اليوم التالى مباشرة .

حضر الحاكم العام لمقابلتى وهو عارى الرأس ، فطلبت منه أن يلبس قبعته ويحضر لتوديعى فى المطار . . فلم يتردد ، وحضر هو وإسماعيل الازهرى .

وفى المطار راح العمال السودانيون يهتفون لى ولمصر ولوحدة وادى النيل .
وعرفت فيما بعد ، أن المحكمة العليا التى كان يرأسها قاض بريطانى ، قد حكمت

بإعدام عوض صالح رئيس تحرير جريدة الأمة ومدير دائرة عبد الرحمن المهدى وبالسجن المؤبد على الصحفى على فرج المحرر بالجريدة وأربع سنوات على عبد الله عبد الرحمن سكرتير عام منظمات الانصار ، وكانوا قد قدموا إلى المحكمة بتهمة تدبير هذه المظاهرات والتحريض عليها .

وقد خفضت محكمة الاستئناف حكم الإعدام إلى المؤبد . . وحكم المؤبد إلى ١٠ سنوات .
واعتبرت أن هذه المظاهرات التى قام بها حزب الأمة ، هى مظاهرات ، ليست ضدى ، وإنما ضد الديمقراطية ، التى أظهرت نتائجها الانتخابات .

على أننى رغم كل ذلك ، أعتبر اتفاقية السودان صفحة جديدة فى تاريخ العلاقات المصرية ـ السودانية ، والعلاقات المصرية ـ البريطانية والعلاقات المصرية ـ الأمريكية .

ففى أكتوبر ١٩٥٣ قامت الولايات المتحدة ، كما فعلت فرنسا من قبل ، بإقامة علاقات دبلوماسية مع السودان من خلال « مكتب تمثيل دبلوماسى لها » فى الخرطوم .

وأتاحت الاتفاقية لكل من الهند وباكستان إقامة علاقات دبلوماسية مع السودان .
وفى ٦ يناير ١٩٥٤ انتخب اسماعيل الأزهرى كأول رئيس للوزراء فى السودان ، وشجع هذا أمريكا على ممارسة الضغط على بريطانيا ، فى مؤتمر واشنطن الذى عقد فى نفس العام ، لكى تصل إلى اتفاق مع مصر ، وإلا عملت أمريكا بمفردها .
ولم يكن أمام ونستون تشرشل إلا أن يقبل الأمر الأمريكى ويسعى للتفاهم مع حول الجلاء .
وعندما دخل عبد الحكيم عامر وحسن إبراهيم ليبلغانى يوم ١٤ نوفمبر ، بقرار إعفائى من رئاسة الجمهورية ، قلت لهما فى وضوح :
ـ بصراحة أنا لن أستقيل !
فسأل عبد الحكيم عامر :
ـ لماذا ؟
قلت :

ـ حتى لاينسب إلى يوما أننى كنت السبب فى انفصال مصر عن السودان .
وفى الحقيقة . . أنا تحملت كل ما جرى لى بعد تمكن عبد الناصر من السلطة ، بعد أزمة مارس ، حتى لاتؤثر استقالتى على نتيجة الاستفتاء حول الوحدة مع مصر ، فى السودان . . خاصة أن الحزب الوطنى الاتحادى الذى كان يؤيد الاتحاد ، والوحدة مع مصر ، قد فاز فى الانتخابات . .

لكن . . عبد الناصر ورجاله فى مجلس الثورة لم يكن ليشغلهم فى ذلك الوقت موضوع السودان . . كان كل ما يهمهم هو كيف يمكن إزاحتى والتخلص منى .

ولست هنا أعطى لنفسى أهمية فى ارتباط السودان بى . . بحيث ينفصل عن مصر ، إذا أنا تركت الحكم . . لكننى اقرر حقيقة يعرفها الجميع فى البلدين . ومازالوا . . فأنا جزء من السودان والسودان جزء منى . . وبينى وبين شعبه وزعمائه علاقات دم وصداقة وارتباط قوى . . كما أن السودانيين بطبيعتهم لا يميلون إلى الديكتاتورية . . ويصرون على ممارسة حقوقهم السياسية مهما كلفهم الأمر . . وهذا ما جعلهم يشعرون بالخطر على أنفسهم وعلى بلادهم بعد أن نشبت واشتعلت أزمة مارس فى مصر ، وأحسوا أن هناك حاجزا من الديكتاتورية يقف حائلا بين الوحدة مع مصر .
ولأننى كنت أقف مع الديمقراطية كانوا يقفون معى . .
ولأن عبد الناصر كان يتجه بالبلاد إلى الديكتاتورية كانو يخشون الوحدة مع مصر .
ولذلك . . .
كان قرار تنحيتى عن رئاسة الجمهورية هو فى نفس الوقت قرار انفصال السودان عن مصر .
ومرة أخرى أؤكد أن . . هذا ليس حديثا شخصيا ، ولا كلاما نرجسيا ، وإنما أمر واقع لا يزال يوجد من يقره ويعترف به ، خاصة فى السودان .
فعندما سئل كثير من زعماء السودان ، بعد ذلك عن سر تدهور العلاقات بين البلدين ، قالوا ، كلمة واحدة
ـ نجيب !
ولما قال لهم جمال عبد الناصر
ـ إن نجيب فرد . . والفرد زائل . . والعلاقة المتينة بين البلدين خالدة . .

كرروا :

ـ نجيب !

وفقد عبد الناصر أعصابه وقال :

ـ ليس معقولا أن نضع فردا فى كفة وعلاقة بين شعبين فى كفة أخرى .

فقالوا له :

ـ إننا جعلنا من نجيب رمزا لوحدة الوادى .. شماله مع جنوبه ..

ثم أضافوا فى اتهام واضح :

ـ وأنتم حطمتم هذا الرمز .

وأنهى عبد الناصر الحوار الذى لم يعجبه .. لكنه سمع مرة أخرى ، من أحد الوزراء المصريين ، الذى كان يتكلم فى نفس الموضوع مع أحد الزعماء السودانيين ..

قال الوزير المصرى :

ـ إن إصراركم على نجيب اصرار بلا تفسير يقبله العقل ولا المنطق .

فرد الزعيم السودانى :

ـ بصراحة إننا فى السودان نخشى على بلادنا بعد إن انقلبتم على نجيب .. ماذا يضمن لنا عدم الانقلاب علينا لو اتحدنا معكم .. لقد تصرفتم مع رجل كريم بأسلوب مهين ..

قال الوزير المصرى :

ـ لكن ..

فسارع الزعيم السودانى قائلا :

ـ لامعنى فى السودان لكلمة لكن .. ولانحب هذه الكلمة المائعة .. نحن بلد وحكومة ديمقراطية حرة .. لانقبل الانطواء تحت علم وحكومة أو توقراطية .

وقبل موعد الاستفتاء واصل السودانيون نفس الكلام .. وقالوا :

ـ إننا سنقرر الانفصال عن مصر ، ولو أراد المصريون أن نتحد معهم فلا مفر أمامهم من إعادة نجيب وتغيير نظام الحكم وعرف عبد الناصر هذا الكلام ، الذى لم يصلنى إلا بعد رفع القيود عنى ، لكنه لم يستجب له ، ولم يفكر فيه ، بل ورد عليه بكلام جارح جدا .

ولم ينفصل السودان عن مصر فقط ، بل وتدهورت العلاقات بين البلدين أكثر

وفى ذلك الوقت كنت أطالع الصحف السودانية : « الناس » ، « والصراحة » ، « والسودان الجديد » ، و « النيل » ، و« الأيام » .. وكنت أسجل ما تنشره هذه الصحف .. ولازلت احتفظ بما سجلته إلى الآن . وللتاريخ أعيد الآن نشر بعض مما سجلته ..

ففى جريدة النيل نشر صالح عبد القادر قصيدة من ٨٣ بيتا ، جاء فيها :

فكم باسم مصر سالت دماؤنا ... وكم باسمها شعبنا قام مأتم
فمن عهدنا عهد اللواء ونحن ما ... نزال نعانى مانعانيه ونغرم
وكنا نرى فيها الصديق وعندما ... اطمأنت بدت أطماعها تتجسم

وجاء فيها :

اذا هان مثلك يانجيب فما هو ... الضمان بأنا لا نهون ونهضم
فهل ينتهى امر الرئيس الى هنا ... ومستقبل الأحزاب فى مصر مهم .
فليس فى مصر اليوم حر وليس فى ... دارها امروء بالحق والعقل يحكم

وجاء فيها :

وهاهى أقدار الرجال تدهورت ... فويل لمن يستاء أو يتبرم
وقد ألغيت فيها العقول فكل من ... يشير إلى جرم العساكر مجرم
فهل يطمئن لهم بربك عاقل ... وأطماعهم فى أرضنا تتضخم

وفى اليوم التالى لإقالتى ، قالت جريدة الأيام فى صفحتها الأولى :

« حكومة مصر تبعد نجيب » .

« الرأى العام فى السودان يستنكر القرار .

« مبارك زروق يقول : هذا العمل يؤثر على الفهم العاطفى للوحدة » .

وقالت الأيام :

« إن الديكتاتورية الفاشية التى تحكم مصر بقوة الحديد والنار لايرضيها أن يرتفع صوت واحد ينادى بالديمقراطية وكانت جريمة نجيب أنه لم يخضع لحكم البكباشية ولم يرض سيطرة الديكتاتورية ..

« إن الشعب المصرى سينتصر فى معركته القادمة ومعركة الاطاحة بالحكم الديكتاتورى ، والشعب السودانى الذى يؤازر شعب مصر فى محنته لن يرضى مطلقا أن يتحد مع ديكتاتورية أو يرتبط بفاشستيه .

وليعلم حكام مصر هذا وليعلموا أن أقوالهم وكلماتهم المعسولة لن تجدى فى كسب السودانيين

وتحت هذا الضغط بدأ إسماعيل الأزهرى الذى كان يناضل من أجل الاتحاد مع مصر ، يتراجع عن موقفه قليلا . . لكن هذا التراجع المحدود لم يرض السودانيين . .

ونشرت جريدة الأمة يوم الأحد ٢٣ يناير ١٩٥٥ على صفحتها الثالثة البيان التالى من اتحاد طلبة كلية الخرطوم الجامعية :

إن تصريح أزهرى الذى صدر تحت ضغط المد الاستقلالى الطاغى ليس سوى الاتحاد مع مصر فى صورة براقة . . إننا ننادى بالاستقلال التام لبلادنا مهما كان نوع الحكم فى مصر . . الاستقلال التام هو المطلب الطبيعى الذى لا يقبل جدلا أو نقاشا لأى شعب من الشعوب . .

إن ارتباط السياسة الخارجية والدفاعية والتجارية مع مصر يعرض سيادتنا للقضاء المحقق خصوصا إذا كان مع حكومات رجعية استبدادية كالحكومة الديكتاتورية التى تحكم مصر الآن والتى حددت موقفها نهائيا من المعسكر الاستعمارى بعد ان وقعت معه عدة اتفاقيات خائنة كاتفاقية النقطة الرابعة وهى فى طريقها الآن إلى إبرام اتفاق دفاعى جديد يكبل الشعب المصرى بمزيد من الأغلال . .

وفى ٣٠ يناير ١٩٥٥ ، كان العنوان الرئيسى لجريدة الأمة هو :

« هل يعاد نجيب إلى رئاسة الجمهورية لإنقاذ الموقف الاتحادى بالسودان ؟

وفى ٣ فبراير ١٩٥٥ قالت صحيفة « التلغراف » :

«نجيب باق فى المرج ويعامل معاملة سيئة » .

ولم تجد حكومة عبد الناصر ردا مناسبا على كل هذا الكلام ، سوى أسلوبها المبتكر ، وهو تلفيق التهم والتشهير بالسودانيين . . فقد قبض على الوزير السودانى السيد خضر حمد فى القاهرة بتهمة حمل قصيدة كتبها الاستاذ أحمد محمد صالح . . وكانت هذه القصيدة ـ الأزمة تقول :

ماكنت غدارا ولاخوانا كلا ولم تك يانجيب جبانا
ياصاحب القلب الكبير تحية من أمة اوليتها الاحسانا

وكانت تقول :

الثورة الحمقاء كنت صمامها — من كل شائبة وكنت ضمانا
أخذت من اسمك روحها وحياتها — ومضت فكانت رحمة وحنانا

وكانت تقول :

ياويح مصر مادهى أبناءها — فمضوا على أحفادهم عميانا
ركبوا رؤوسهم فكانت فتنة — هوجاء ما تركت لهم إخوانا

وكانت تقول :

باعوا رئيسهم ورمز كفاحهم — بيع السماح وحالفوا الشيطانا
ومضى كبيرهم يفاخر جهرة — بصنيعه متبجحا فتانا

وكانت تقول :

قالوا أردت سلطانا وتجبرا — ومشيت تبغى الحياة والسلطانا
كذبوا فعرشك فى القلوب مكانه — أتريد من بعد القلوب مكانا

وكانت تقول :

هل يحجبون الشمس فى إشراقها — أو يطمسون جمالها الفتانا
ماحطموك وانما حطموا — أمل البلاد وصوتها الرنانا
هذا جزاء المحسنين وقلما — تلقى على احسانك الإحسانا

وهكذا ضاع السودان كما ضاعت الديمقراطية . .
وكان لابد أن يقدم عبد الناصر كبش فداء . . ولم يجد بالطبع أفضل من صلاح سالم . . فأجبره على الاستقالة . . فقد استغل عبد الناصر الاخطاء التى وقع فيها صلاح سالم فى السودان ، وذبحه . . وخرج هو بريئا من هذه الجريمة . .

وتمنيت أن أرى صلاح سالم بعد ذلك . . لكن القدر أختطفه قبل أن يحقق أمنيتى وسحبت بريطانيا جيشها من السودان وخرج الجيش المصرى من هناك أيضا أنسحب من جزء من وطنه وتم الجلاء فعلا . . فى نوفمبر ١٩٥٥ . . ولم يكن الانفصال عن مصر فى حاجة إلى استفتاء لتقرير المصير . . فلم يجر استفتاء . . ولكن الجنوبيين اعتبروا التخلى عن هذا الاستفتاء تخليا عنهم واساءة لهم ، فقامت ثورة فى الجنوب على الشمال .

وأعلن قيام الجمهورية السودانية فى ١٩ ديسمبر ١٩٥٥ .
وأعلن استقلال السودان فى أول يناير ١٩٥٦ .
وعندما ذهب عبد الناصر لزيارة الخرطوم بعد ذلك لم ينس السودانيون مواقفه القديمة وخرجوا لاستقباله وهم يصرخون فى وجهه ويلقون موكبه بالطماطم والبيض .

الفصل الثانى عشر

مَن فرّط فى الجلاء ؟

- قدمنا لامريكا تمثال آله الحكم عند الفراعنة وقدمت لنا مسدسا بلا طلقات .
- قبل عبد الناصر فى مفاوضات الانجليز ما رفضته أنا .
- حركات مكشوفة على مائدة المفاوضات حاول بها عبد الناصر أن يثبت للانجليز أنه الرجل الأهم .
- المخابرات المركزية ترسم الخطط الأمنية لعبد الناصر وتدعم حرسه بالسيارات والأسلحة الجديدة .
- قال لى السفير السوفيتى لو قدمنا لكم السلاح لاستخدمتوه ضدنا .

أثناء مفاوضات السودان ، كان قلبى مع السودانيين . . لكن . . عقلى كان مع المصريين . .

فقد كنت أعتبر التفاوض مع الانجليز بشأن السودان هو الخطوة الأولى للتفاوض معهم بشأن الجلاء عن مصر . . وحل مشكلة السودان هو البداية الطبيعية لحل مشكلة مصر . .

ولهذا . . كان لابد من تفويت الفرصة على الانجليز ، وفصل مسألة السودان عن مسألة الجلاء عن مصر . .

ولهذا . . قبلنا بمبدأ تقرير المصير للسودان . . اما الاستقلال عن انجلترا ومصر ، واما قبول الوحدة مع مصر . .

ولهذا . . كان علينا بعد توقيع اتفاقية السودان أن نمهد للتفاوض من أجل اتفاقية الجلاء البريطانى عن مصر . .

ولم نكن نملك فى هذا التمهيد سوى اثارة الخواطر ضد الانجليز من خلال تصريحاتنا الاعلامية والصحفية التى تحدد بوضوح أن الاحتلال هو وصمة العار الكبرى التى على كل المصريين ازالتها . .

فى أسوان ، وأثناء زيارتى لها فى ٢٢ مارس ١٩٥٣ ، قلت :

« لقد انتهينا من مسألة السودان بفضل اتحاد الأمة وبقى أمام السودانيين مرحلة خطيرة سوف يخرجون منها أحرارا ، أما مسألتنا فاعلموا أننا لا نرضى الا بجلاء الغاصب دون قيد أو شرط ، أو نموت دون ذلك ونحن على أتم استعداد للتضحية والأمة كلها وراءنا »

وفى ١٤ أبريل ١٩٥٣ ، قلت فى دمنهور :

« قلت لاخوانكم بالصعيد أنه لاثالث أمامنا ، فاما الجلاء واما الفداء ، ولكن لا أحب أن أعيدها حتى لاتفقدوا زينتها فى القلوب ، ولكن أريد أن أقول لكم ان ما أطمع الناس فينا هو أنهم سمعوا منا فى الماضى صراخا عنيفا وصياحا عاليا ثم رأوا منا تواكلا معيبا وتفرقا ، فلنمح هذه الصفحة ليروا منا تقاربا وتراحما ، وليروا منا عملا صامتا متحدا ، ولكى نثبت لهم أن المصريين غيروا أسلوبهم وطريقتهم وأنهم أصبحوا شعبا جادا صارما »

وفى بيت الله الحرام . . وأثناء رحلة الحج الثانية . فى أغسطس ١٩٥٣ ، وقفت على جبل عرفات ، أدعو الله سبحانه وتعالى « أن ينصرنا على طرد الانجليز

من مصر ، وينصر الاسلام والمسلمين » . . كان صوتى عاليا . . وكانت الجموع ترددد الدعاء ورائى .

وفى تلك الأيام ، لم أكن أنا الوحيد ، حقيقة ، الذى يدعو فقط الى طرد الاحتلال البريطانى من مصر ، وانما كان جمال عبدالناصر أيضا ، وغيرنا من رجال الثورة . .

بل اننى أعتقد أن نجم عبد الناصر السياسى بدأ يسطع بفضل تصريحاته المتكررة حول الجلاء . .

فهو صاحب العبارة الشهيرة :

« على الاستعمار أن يحمل عصاه ويرحل » .

وفى أول مارس ١٩٥٣ أدلى بحديث طويل لمدير وكالة الأنباء المصرية ، قال فيه :

« اذا لم يسارع الغرب الى الاعتراف بالحقوق المشروعة لمصر والبلاد العربية فى الأستقلال التام والوقوف على قدم المساواة مع الدول ذات السيادة ، كبيرها وصغيرها ، فلن تستطيع الدول الغربية أن تخدعنا بوعودها المعسولة اذا ما نشب صراع عالمى مسلح ثالث » . وبعد أسبوعين رد على مناقشات الصحف البريطانية التى دارت حول ما أسمته ، فى ذلك الوقت ، بشروط الجلاء ، فقال : « ان مصر لن تساوم على حقها الطبيعى فى الجلاء الناجز الكامل ولاتقبل أى نوع من أنواع الاحتلال ولن تسمح فى حالة نشوب حرب لبريطانيا فى استخدام القواعد الجوية المصرية فى القتال . والمصريون أقدر على تحمل مسئولية الدفاع عن القنال من أى قوات أجنبية وستحافظ مصر على استقلالها وحريتها حتى آخر رجل وامرأة » .

وبجانب هذه التصريحات العلنية الواضحة ، قام بعض رجال الثورة باعادة تنظيم المقاومة المسلحة ضد الانجليز فى منطقة القناة ، مع تجنب الأخطاء التى وقعت فيها حكومة الوفد ١٩٥١ لاخراج الانجليز من منطقة القناة . . وجاء هذا القرار ، بعد أن عرضت المشكلة كاملة على مؤتمر مشترك من أعضاء مجلس القيادة والوزراء . . واتفقنا على أن تستمر فترة الكفاح المسلح خمسة سنوات . . وربما أكثر . . وكان فى رأيى ، أن الأسلوب الأفضل لمقاومة الانجليز هو أسلوب حرب العصابات ، وأسلوب العمل الفدائى ، وليس أسلوب قتال الجيش المنظم . . وقررنا تشكيل لجنة عليا فى كل وزارة لتجنيد المتطوعين بها . . وقررنا أن يؤلف

كمال الدين حسين كتائب الفدائيين التى تحولت الى كتائب الحرس الوطنى بعد ذلك . . وكان اختيار كمال الدين حسين اختيارا مناسبا ، لخبرته القديمة فى مثل هذه الأعمال قبل حرب فلسطين الرسمية .

لقد أحسست أن علينا أن نغير أسلوبنا القديم ونحن نطالب الانجليز بالجلاء عن بلادنا . . وأحسست أن علينا أن لانكرر الأخطاء القديمة التى وقعت فيها الحكومات من قبلنا . . وأحسست أنه لايمكن التفاوض دون أن يشعروا أننا يمكن أن نموت فعلا فى سبيل قضيتنا . . وأحسست أن ظروفنا الآن أفضل للوصول إلى الحل الذى يرضينا . . فشماعة السودان التى كان يعلق عليها الانجليز مسألة الجلاء عن مصر قد تحطمت . . والملك فاروق ، رأس النظام الفاسد ، قد رحل . . والشعب المصرى الان على أهبة الاستعداد ليأكل جنود الاحتلال بأسنانه ويقاتلهم بصدره .

أحسست أن ستار الختام فى مسرحية الاحتلال الطويلة والبغيضة على وشك أن ينزل .

ولأ أريد هنا أن يتصور أحد ، خاصة من أبناء الجيل الجديد ، الذين لم يعاصروا الأنجليز ، أننا بدأنا من فراغ ، أو أن كل المحاولات النضالية التى سبقتنا كانت سرابا . . أبدا . . كان قبلنا رجال مهدوا لنا الطريق . . وزعماء حفروا دورهم فى سجل التاريخ . . كان قبلنا مصطفى كامل بدوره الضخم فى تعريف الغرب بالقضية . . ومحمد فريد برومانسيته التى حولت القضية الى تضحية حتى الموت فقرا . . وسعد زغلول الذى تحولت مطالبه الى ثورة ، وتحولت الثورة الى حزب شعبى كاسح ، هو الوفد . . وتحول الحزب الى قتال مسلح عام ١٩٥١ . . قتال شرس فى منطقة القناة ، لم يتوقف الا بعد حريق القاهرة ، وأعلان الأحكام العرفية .

ولأ أريد لأحد من أبناء الجيل الجديد أن يتصور أن إخراج الانجليز من مصر كان أسهل من خلع الضرس ، كما تردد بعد ذلك . . أبدا . . كانت عملية شاقة وخطرة فى نفس الوقت . .

فقد كان الانجليز يقفون على بعد ٩٠ كيلو مترا من القاهرة ، فى طريق السويس . . وكان لهم . . ٨٠ ألف جندى فى قاعدة قناة السويس . . وكانوا يعرفون كل شيء عنا ، وعن الجيش ، وكانوا يستطيعون الاستيلاء على السلطة والتخلص منا بسهولة . . لكنهم ، والحمد لله ، لم يتحركوا . . لأن حركتنا فى

ليلة ٢٣ يوليو كانت مفاجأة لهم . . ولأننا تصرفنا بذكاء ، فلم نقل أكثر من أننا حركة اصلاح داخلية فى الجيش . . وأعلنا منذ البيان الأول أن الرعايا الاجانب فى مأمن كامل . . وخشى الانجليز أن ينزلوا من السويس حتى لا تتحول شوارع القاهرة الى مجازر . . كما أنهم ، وأنا أيضا ، قبلنا الدخول فى مفاوضات الجلاء ، منعا للقتال ، وحقناً للدماء .

كنت لا أريد أن تصطدم الثورة ، التى كانت لاتزال فى طورها الأول الضعيف ، بالانجليز الأقوياء . . وكنت أرى فى نفس الوقت أن الظروف أصبحت ملائمة أكثر للتفاوض معهم . . فلا ملك يناور . . وأحزاب تعطل . . ثم ان الانجليز أنفسهم كانوا أميل للتفاوض وكان رفض اقتراحهم بالتفاوض يعطيهم الفرصة أمام العالم لمد سنوات الاحتلال .

وفى يوم الخميس ١٦ أبريل ١٩٥٣ ، أذاعت القاهرة ولندن البيان المشترك التالى :

« اتفقت الحكومتان المصرية والبريطانية على بدء المباحثات قريبا فى المسائل المعلقة بين البلدين ، وسيستقبل حضرة الرئيس اللواء أركان الحرب محمد نجيب وحضرة الدكتور محمود فوزى وزير الخارجية حضرتى سيررالف ستيفنسون السفير البريطانى والجنرال سير بريانى روبرتسون يوم ٢٧ أبريل الحالى »

وكما جاء فى هذا البيان ، بدأت المفاوضات يوم الاثنين ٢٧ أبريل ١٩٥٣ . . فى الحادية عشرا والربع صباحا . .

كان معى محمود فوزى ، وجمال عبدالناصر ، وعبداللطيف البغدادى ، وعبدالحكيم عامر ، وصلاح سالم . . وعلى الجانب الآخر كان السير رالف ستيفنسون ، والجنرال سيربريان روبرتسون ، والمستر كروز ويل ، والجنرال سير آرثر ساندرز ، والبريجادير دوف والبريجادير هوب ، والجروب كابتن دافيز .

وفى الاجتماع تبادلنا مذكرات بوجهة نظرنا .

وعقب الاجتماع أذيع البيان التالى :

« عقد صباح اليوم الاجتماع الأول بين الوفدين المصرى والبريطانى وألقى حضرة رئيس مجلس الوزراء اللواء محمد نجيب والسفير بيانات عامة ، وسيعقد اجتماع آخر غدا فى الساعة الحادية عشرة صباحا بمجلس الوزراء »

وعقد الاجتماع الثانى . . وعقد اجتماع ثالث ، ورابع ، وخامس ، وسادس . .
ثم أوقفت الاجتماعات ، وانهيت المفاوضات .
قطعت المباحثات فى يوم الأربعاء ٦مايو ١٩٥٣ .

وكان السبب وراء هذا القرار مالمسته من مراوغات من الجانب البريطانى . .
فقد وافقنا على بقاء بعض الفنيين البريطانيين فى القاعدة ، لمدة معينة ، لكن البريطانيون أرادوا استغلال هذه الموافقة ، لتوسيع عدد أولئك الفنيين ، بحيث يصبحون فعلا ، احتلال جديد ، فى صورة مختلفة . .
وأعلنت للشعب أننى قطعت المباحثات . . وقلت فى بيان ١٩ مايو ، عبر الأثير :

« لقد قطعت المباحثات بيننا وبين الانجليز نتيجة لمحاولتهم العبث بالمبدأ الذى جعلناه أساسا للدخول فى هذه المباحثات وهو جلاء جنود الاحتلال عن أرضنا جلاء كاملا دون قيد ولاشرط ، ويعلم الله أننا لم ندخل هذه المباحثات تسليما منا بأن المفاوضات هى الطريق للوصول إلى حقنا وإنما لنحدد مع الانجليز مراحل الجلاء وطريقة تنفيذه ولنظهر للعالم إذا ما فشلت المحادثات نوايا أولئك المستعمرين العادين على حريتنا .

« ومنذ أن قطعت هذ المباحثات والناس تتبياءلون عن الخطوة التالية التى سوف تخطوها الحكومة التى أتشرف برياستها .
« الا أنى مكاشفكم جميعا بأننا قد عقدنا العزم على أن نستخلص حقوقنا بأيدينا ، ذلك لأننا نؤمن ايمانا لن تزعزعه الحوادث والنوائب أن الحقوق تؤخذ ولاتوهب . ومن أجل ذلك لن تقبل مصر ـ وأنا هنا أتكلم بلسانها ـ أن ترد اليها حقوقها مشروطه أو منقوصة مهما كانت الاقنعة التى تختفى وراءها من الافتئات على هذه الحقوق . ولكن أستخلاصنا لحقوقنا من غاصبينا لن يكون سهلا ولا هينا وأنما هو أمر جلل يقتضينا كحكام مسئولين عن سلامة هذا الشعب ، وكحكام مسئولين عن أمنه . . وكحكام نقدر حقه علينا ، وواجبنا نحوه ـ أن نستعد له ، وأن نحكم الاستعداد فلا نترك أمرا مهما بدا تافها دون أن نتدبره ولا نترك منفذا يحتمل أن ينفذ منه عدونا الينا ، دون أن نسده . فلسنا نرتضى لأنفسنا أن نزج بابناء مصر فى امتحان كهذا الذى ينتظر مالم نعدهم له اعداد كاملا ومالم نوفرلهم كل الامكانيات التى تعينهم على الصمود لذلك الامتحان وتمكنهم من النجاح فيه وليس التنظيم والتدريب العسكرى الذى نأخذ به الآن الا بعض هذه الامكانيات

إلى هذا الحد كنت واقعيا . .
وقلت :

« لقد أفزع تجمعكم وراءنا والتفافكم حولنا السير ونستون تشرشل فجعله يتخبط ، ويهذى بأقوال ان دلت على شيء فإنما تدل على حنق المغيظ من عهد سد على المستعمرين المسالك ، والزم أذنابهم جحورهم وخلص البلاد ، أو كاد من دعاة الفرقة والانحلال والهزيمة ، وانى لواثق أن تشرشل لن يجد منكم الا كل ما يزيده غيظا على غيظ ، وحنقا على حنق ، لن يجد منكم الا اصرارا على حقوقكم وإلا استمساكا باتحادكم والا تفانيا فى مطاردة عملائه الذين يستهدفون السعى بينكم بأراجيفهم الدنيئة .

« ولم يقف غيظ تشرشل عند المصريين وحدهم بل تعداهم الى الخبراء الألمان الذين يعملون فى جيشنا فصب جام غضبه ، وقال فى وصفهم ، أنهم ينشرون النازية فى الجيش المصرى ، وأنى أفهم جيدا سر حقد تشرشل على هؤلاء الخبراء

. وانا لموفرون البعض الآخر فى يوم قريب . قال تعالى « وأعدوا لهم ما أستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم »
الى هذا الحد كنت واقعيا . .
وقلت :

« اننا حريصون ـ أشد الحرص ـ على أن لانكرر أخطاء من سبوقنا ، لن نكرر مأساة فلسطين ، ولن نكرر مأساة القنال التى حدثت عقب الغاء المعاهدة فى سنة ١٩٥١ . نعم لن نندفع ولن ندفع الناس نحو الخطأ بشهوة لأنفسنا بذلك التصفيق الأجوف الذى مايلبث حتى يقع ، وتبقى الأعمال راسخة فى أذهان الناس وصفحات التاريخ »
الى هذا الحد كنت واقعيا . .
وقلت :
« نعم ـ نحن الذين سنحدد موعد المعركة ، ونحن الذين سنختار أسلحتها ، ونحن الذين سنعين الظروف التى ينبغى أن تدور فيها وسنحدد ذلك كله باملاء من وطنيتنا ومن حرصنا على سمعتنا ومن تقديرنا لكافة الاحتمالات والظروف التى تحيط بنا وتلابس الموقف الدقيق الذى يمر به هذا الوطن المجيد فى هذه الأيام »

فلقد كان يريد لجيشنا أن يظل معتمدا على الانجليز الذين اذلوه ، وحطموه ، وجعلوا منه جيشا لا يستطيع أن يضرهم ولايستطيع أن ينفعنا .
« فلما صارت الأمور الينا ، وعقدنا العزم أن نجعل من الجيش جيشا ، يستطيع أن يضر الانجليز ، ويستطيع أن ينفعنا ، واستعنا بهؤلاء الخبراء لمعاونتنا فى بلوغ الغاية ، أكل الحقد قلبه »
الى هذا الحد كنت صريحا وواضحا ومباشرا . . ودفع هذا الكلام العلنى الذى نقله العالم كله الى أصعب أزمة بيننا وبين الأنجليز . . ودفعت هذه الأزمة الولايات المتحدة للتدخل بين مصر وبريطانيا لحل الأزمة ، ولايجاد وسيلة عاجلة لانقاذ المباحثات . .

ففى ٢٤ مايو وصل وزير الخارجية الأمريكى جون فوستر دالاس إلى القاهرة ، ضمن جولة له فى دول المنطقة . . وقابلته أنا والدكتور محمود فوزى . . وبمجرد أن رأيته ، حتى أحسست ، من الوهلة الأولى ، أنه « كاوبوى » أمريكى . . يفتقد الكثير من الرقة ، والحضارة . . ويميل أكثر للعنف واستعراض القوة . . وأكد هذا الأحساس الهدية التى حملها لى ، من الرئيس الأمريكيى ايزنهاور . . كانت هذه الهدية عبارة عن مسدس ، غطت الفضة قبضته ، ونقش عليه بالانجليزية :
« إلى الجنرال نجيب من الجنرال ايزنهاور »

وكنت قد أرسلت الى الرئيس ايزنهاور ، مع سفيرنا فى واشنطن « أحمد حسين » هدية تعبر عن حضارتنا العريقة ، كانت تمثالا لالهة الحكمة عند الفراعنة ومع المسدس ، قدم لى دالاس خطاب شكر من ايزنهاور . . وقال :
ـ انه هدية عظيمة !
فقال السفير الأمريكى جيفرسون كافرى الذى كان حاضرا :
ـ أنها هدية نافعة ولكن لتأييد السلام .
فقلت لهما وأنا أضحك :
ـ إننا نستخدم السلاح فقط فى حالة الدفاع عن النفس .
وكان المسدس فى الحقيقة ، بلاقيمة عملية ، لانه كان بلا ذخيرة ، ولم يكن له عندنا ذخيرة مناسبة ، لأنه كان من عيار غير متوافر ، ولا مستخدم عندنا .
وقال دالاس :
ـ انى أريد منك أن تعدنى بأن يخيم الهدوء على منطقة قناة السويس إلى أن أعود

من رحلتى فى الشرق الأوسط إلى واشنطن وأجتمع بالرئيس أيزنهاور .
فقلت له :
ـ أنا أعدك « لكن . . هل يقدم لك الانجليز نفس الوعد ؟ . . ان الانجليز لم ولن يحترموا ذلك . . اذ أن اعتداءاتهم على المصريين تقع كل يوم فى منطقة القناة . . وهذا لايمكن وصفه الا أنها محاولات مقصودة لاستفزاز المصريين الذين طالبتهم فى بيانى الذى أذيع منذ أيام بأن يلتزموا الهدوء والصبر .
فحول دالاس الموضوع ، وراح يشيد بحكمتنا ، وما حققناه للشعب ، فى مجالات العمل الداخلية ، وانتقل فجأة ، وبدون مقدمات طويلة للكلام عن الشيوعية ، وعن خطرها الزاحف على الشرق الأوسط ، وقال :
ـ ان روسيا تريد أن تسيطر على العالم عن طريق الشيوعية ، ونحن فى أمريكا نقوم بعمل حزام حولها للدفاع عن العالم الحر . . والشرق الأوسط يمثل جزءا من هذا النزاع ، وعلى ذلك يجب قيام حلف من الدول العربية بزعامة مصر لاستكمال هذا الحزام .
وسكت لثوان . . وعندما وجدنى لم أعلق ، قال :
ـ إن حكومة الرئيس أيزنهاور عنيت بدراسة الدفاع عن الشرق الأوسط بالاشتراك مع بريطانيا وان مسألة الدفاع عن هذا الجزء من العالم ورفاهيته من المسائل التى تعنى بها الحكومة الأمريكية .
ولم أكن فى حاجة لمزيد من الايضاح . . فقد كان كلام دالاس مباشرا وقاطعا . . يريد أن ندخل فى اطار الاحلاف الغربية . . يريد أن نستبدل الاستعمار القديم بالاستعمار الجديد . . يريد أن نخرج من نقرة لنقع فى بئر . .
قلت له :
ـ إن الخطر الشيوعى هو خطر محتمل ، ولكن الواقع الآن هو أن الأنجليز يحتلون بلادنا فعلا رغم إرادتنا ، فهم الآن أعداؤنا . . ومن البديهى أنه لايمكننا أن نتحالف مع أعدائنا .
وقلت له :
ـ إن جلاء الجيوش البريطانية هو أهم شىء أجمع عليه الشعب المصرى . . أما الحديث عن عمل حزام حول الأتحاد السوفيتى وأشتراك مصر فى حلف مع العالم الغربى فهذا أمر لا يمكننى البحث فيه الآن . . لكننى أعدك بدراسة هذا الموضوع بعد جلاء الانجليز وتحرير أرضنا .
فسألنى دالاس عن أسباب قطع المفاوضات مع البريطانيين . .

فشرحت له الأسباب . .
فقال :
ـ أعتقد أنه لابد من وجود عمل يتمشى مع السيادة الكاملة لمصر مع جلاء القوات البريطانية ، على أن ينظم هذا الجلاء ، حتى تظل القاعدة الحربية الهامة فى منطقة قناة السويس بمستودعاتها فى أمان تام ، وأن تكون ميسرة لاستعمال العالم الحر فى حالة قيام حرب فى المستقبل .
وأنهى دالاس حديثه بالطلب الذى طلبه فى البداية ، وهو الوعد بأن يشمل الهدوء منطقة القناة إلى أن يعود إلى واشنطن .
كان ما قاله دالاس عن سياسة الأحلاف ، كلاما ليس جديدا ، وسبق أن سمعته من جيفر سون كافرى ، ونحن على مائدة العشاء فى بيت عبد المنعم أمين ، قبل أن يخرج من مجلس القيادة ، ويعين سفيرا لمصر فى هولندا .
وقد كان لبيت عبد المنعم أمين الفخم هو مكان اللقاء المستمر بين رجال الثورة والأمريكان . . وأنا لم أحضر مثل هذه اللقاءات سوى مرتين فقط ، لأننى كنت أخشى من أن تقع الثورة فريسة سهلة فى يد الأمريكان ، وحذرت عبد المنعم أمين منها . . لكنه لم يسمع كلامى ، وفضل أن يستجيب لكلام جمال عبدالناصر الذى كان على صلة وثيقة بالأمريكان ، منذ الساعات الأولى بعد نجاح الحركة .
وكنت قد قرأت الكثير عن علاقة ، المخابرات المركزية بعبد الناصر وتنظيم الضباط الأحرار قبل الثورة ، لكننى لا أملك أى دليل على صحة ما قرأت ، ولا على نفيه . .

وكل ما أستطيع أن أجزم به ، هو أن الأمريكان ، منذ اللحظة الأولى لنجاح الحركة ، كانوا يحاولون التقرب منا ، وكسب ثقتنا ، وكنت كما قلت من قبل ، قد أبلغتهم فى صباح ٢٣ يوليو أن الحركة لاتستهدف التعرض للأجانب ، وذلك بواسطة على صبرى ضابط مخابرات الطيران فى ذلك الوقت ، والذى كان وثيق الصلة بالملحق الجوى البريطانى مستر إيفانز .
أما المرة الأولى التى قابلت فيها الأمريكان وجها لوجه ، فكانت يوم خروج الملك فاروق ، حيث التقيت ساعتها بالسفير الأمريكى جيفرسون كافرى ، وتبادلنا التحية العابرة ، دون حديث .
وأول مرة تبادلنا فيها الكلام كانت فى بيت عبد المنعم أمين ، المطل على النيل

، عند كوبرى عباس ، وكان معه أربعة من رجال السفارة الأمريكية ، عرفت فيما بعد أن أثنين منهم من رجال المخابرات المركزية . . وكان معى عبدالناصر ، وعبدالحكيم عامر ، وعبداللطيف البغدادى ، وزكريا محيى الدين ، ومحمد رياض (قائد الحرس) وتكررت الدعوة مرة أخرى فى نفس المنزل بعد أسبوع واحد .

وفى اللقاء الأول قال كافرى :

ـ إن حكومته تخشى تسلل الشيوعية إلى مصر ، وترى ضرورة وجود أجهزة أمن قوية لحماية شعبها وعرض معاونة أجهزة المخابرات المركزية لها فى هذا الأمر . .

وتحدث أيضاً عن ضرورة ارتباطنا بأحلاف « العالم الحر »

وبنفس الصراحة التى تكلم بها كافرى ، قلت له :

ـ لا . . أنا أعترض على ما تقوله ياسيدى السفير . . فالشعب المصرى بطبيعته لا يهتم بالشيوعية ، وأنا لا أخشى من أى تسلل شيوعى إلى مصر ، كما أننى ضد أى أستعمار ، وضد أى قيد على حريتنا من أى نوع .

وقلت له :

ـ ونحن نرفض تعاون أجهزة الأمن مع المخابرات المركزية لأننى لا أريد تقييد حرية المواطنين ،وتقوية هذه الأجهزة يجعلها فى آخر الأمر هى التى تحكم فعلا ، وكفى ما عانيناه وعاناه شعب مصر من القلم السياسى . . أما من حيث الأحلاف فلا حديث عنها قبل الجلاء الكامل غير المقيد بشروط .

لكن ما رفضته أنا بصراحة ، قبله جمال عبدالناصر بعد ذلك . .

تدخلت المخابرات المركزية فى رسم خطط حماية عبدالناصر الأمنية ، وجاءت له بسيارات وأسلحة خاصة لتنفيذ هذه الخطط ، كما أن أسس تكوين المخابرات المصرية التى أقامها زكريا محيى الدين ، كانت مستمدة من أفكار بعض الأمريكان ، وتحولت هذه المخابرات كما توقعت الى جهاز لتعذيب الشعب المصرى وفض كرامته ، كما حدث بعد ذلك .

كان احساسى بخطر احتواء الأمريكان للثورة ، هو دافعى لقطع حبال الاجتماعات الخاصة مع رجالهم . . وتأكيدا لهذا الموقف ، أعلنت بصراحة لوكالة اليونيتدبرس ونحن على وشك المفاوضات مع الانجليز بأننى : « اصر على أن يكون الجلاء غير مشروط بشرط ما فنحن غير مستعدين لمناقشة أية منظمة للدفاع عن الشرق الأوسط سواء كانت حلفا . . أو ميثاقا أو تحت أى أسم تطلقه عليها » .

ولكنى عرفت أن الأجتماعات الخاصة مع الأمريكان استمرت سرا مع جمال عبد الناصر وعدد من أعضاء مجلس القيادة . . وعندما عرفت ذلك عارضت هذا الاتجاه بشدة ونصحتهم فى الابتعاد عن هذه الأتصالات ، وأخذت جمال عبد الناصر معى إلى مكتبى وقلت له :

ـ إن وجود المخابرات المركزية وسطنا أمر خطير جدا .

قال :

ـ لكن . .

لكننى لم أتركه يعترض وقلت له :

ـ ان الأمريكان يريدون تخريب الثورة واحتوائها لتسير فى ركابهم ، ويجب أن تقطع صلتك بهم فورا .

ووعدنى عبدالناصر بذلك . .

لكنه لم ينفذ وعده . .

واكتشفت ذلك بنفسى . .

ففى يوم كنت أغادر مكتبى فى القيادة ليلا ، فمررت على مكتب جمال عبدالناصر ، فوجدت عنده كيرميت روز فلت ، رجل المخابرات الأمريكية الذى حضر العشاء معنا فى بيت عبدالمنعم أمين ، والذى تحدث عن دوره فى مصر بعد الثورة ، مايلز كوبلاند ، فى كتابه « لعبة الأمم » . .

فسألت عبد الناصر :

ـ ماذا يفعل كرميت روزفلت عندك يا جمال ؟

فقال لى :

ـ إنه كان يرغب فى مقابلة سيادتكم !

فغضبت لهذا العذر الذى كان أقبح من ذنب ، وقلت له فى جفاء :

ـ أنت تعرف أننى أكره رجال المخابرات ، ولا أريد مقابلة هذا الرجل ، وإذا كان الأمريكان يريدون الاتصال بى فعلا ، فالأفضل أن يتصل بى السفير الأمريكى فقط .

ووعدنى عبدالناصر مرة أخرى أن لا يتصل بهم . .

ولكنه مرة أخرى لم ينفذ وعده . .

فلم تنقطع اتصالاتهم مع الأمريكان ... بل وزادت .

وكما قلت من قبل :

« لست أريد بذلك إطلاق الأحكام أو إثارة الشبهات . . ولكنى استنكرت اتصالا يتم بين قيادة سياسية وعملاء فى مخابرات دولة أجنبية » .
وكان الأمريكان فى هذه الفترة يظهرون فى صورة الدولة التى تريد مساعدتنا فى التخلص من الاحتلال البريطانى ، وكنت لا أجد مناسبة فى أى مقابلة رسمية دون أن أثير معهم الحديث فى ضرورة اقناع البريطانيين بقبول مبدأ الجلاء » .
حتى أن مستر تشرشل رئيس الوزارة البريطانية قد صرح يوم وصول مستر دالاس :
« يبدو أن مصر تقبل أن تكون أمريكا طرفا ثالثا فى مباحثات الجلاء » !
وكان السفير كافرى قد عرض على هذا فعلا ، لكننى رفضته . وسألت دالاس عن تصريح تشرشل ، فقال :
ـ قرأت التصريح .
ولم يعقب .
فخشيت أن يكون ما قاله تشرشل صحيحا ، وخشيت أن يكون هناك اتفاقا بين أمريكا وبريطانيا على ذلك ، وخشيت أن يؤثر تصريح تشرشل على الثورة ، فخرجت من اجتماع دالاس ، وقلت للصحافيين تعقيبا على تصريح مستر تشرشل :
« إننا لن نقبل خصما ثانيا . . فما قاله تشرشل غير صحيح » .
وغضب دالاس من كلامى . .
وسافر إلى بيروت ، حيث كان كميل شمعون رئيسا للجمهورية ، وصائب سلام رئيسا للوزراء . . وأستقبل هناك بمظاهرات معادية ، وهتافات صاخبة .
وكما قلت من قبل :

« كانت زيارة دالاس لمصر قد مضت هادئة ، إلا أن أحمد أبو الفتح كتب مقالا ينقد فيه تصرف سفيرنا فى واشنطن أحمد حسين الذى هرع إلى القاهرة ليكون فى أستقبال دالاس بعد سفره لأمريكا بعشرة أيام وتقديم أوراق اعتماده بخمسة أيام .
وقد دفعنى موقف الشعب اللبنانى إلى التساؤل :
لِمَ لمْ تتحرك مصر فى مظاهرات ضد دالاس ؟
وأرجعت ذلك إلى عدة عوامل . . منها ثقة الجماهير فى وطنية الثورة ومنها الغاء الأحزاب السياسية التى كانت تحرك الجماهير ومنها أيضا أننا لم نستطع خلق تنظيم قوى يكتسب ثقة الناس .

هيئة التحرير تكونت فى ظروف لاتسمح بخلق تنظيم سياسى قوى . . لأنها اعتمدت على العسكريين الذين لايحسنون فهم العقلية الشعبية ولا يجدون المرونة السياسية . . وانتشر الضباط كما سبق أن أو ضحت فى مختلف تنظيمات الهيئة على امتداد الجمهورية . . وكانت هناك حساسية قد بدأت تظهر بين المدنيين والعسكريين . . بعد أن أساء التصرف عدد من العسكريين .

ولذا فإن تنظيمات هيئة التحرير قد خلت من الشخصيات السياسية النظيفة التى مارست العمل السياسى قبل الثورة ، وعفت عن الانتساب إليها العناصر الحزبية التى كنت أتمنى أن تلحق بها ، ولم يعد يتهافت عليها الا نوع جديد من المتسلقين والانتهازيين وكان مفروضا أن تكون هيئة التحرير هى أساس وحدتنا الوطنية فى مواجهة قوات الأحتلال . . ولكنها تحولت مع الاسف إلى هيئة ضعيفة متهالكة لاتظهر إلا فى الاجتماعات العامة حيث أجادوا جمع الجماهير للاستماع إلى الخطب فى السرادقات .

كنت اتمنى أن تنطلق فى القاهرة تظاهرات ضد زيادة دالاس الذى قلت عنه لزملائى إنه « تاجر أحلاف » يود أن يرغمنا على شراء بضاعته . . ولكننى لم أكن أود أنه تكون حركتها باشارة من السلطة . . كنت أود أن تكون حركة ذاتية نابعة من عواطف الجماهير . . ولكن يبدو أن الاجراءات الاستثنائية التى اتخذت بتشكيل مجلس الثورة ومحاكمات الضباط وأعتقال السياسيين قد أضعفت من مبادرات الجماهير فى التعبير عن رأيها وإرادتها .

وكان مبدأ عدم الأرتباط بأية أحلاف عسكرية قد أصبح يقينا وعقيدة منذ أعلنت حكومة الوفد ذلك ، بعد أن تقدم سفراء أمريكا وبريطانيا وفرنسا وتركيا يطلبون بطلب مشترك إلى الدكتور محمد صلاح الدين وزير الخارجية يطلبون فيه دخول مصر فى حلف دفاعى يسمى « منظمة حلف الشرق الأوسط » . . وأعلنت حكومة الوفد فى البرلمان رفضها لذلك . . وواصلت الثورة الرفض وسافر دالاس

وهو يحمل ما قلته له . .

وعاد إلى واشنطن . .

وانتظرت ما يرد به . . لكن شيئا جديدا من أمريكا لم يصل .

لا رأى فى الموقف من مباحثات الجلاء ، ولا ما وعدوا به من سلام .

فبعد الثورة عرفت أن الملك فاروق تعاقد مع أمريكا على صفقة سلاح قيمتها

خمسة ملايين دولار . . وعرفت آن الآنجليز عطلوا الصفقة لأنهم كانوا لايريدون الاعتماد على غيرهم فى تسليحنا . وكانوا لا يسمحون لنا بشراء أسلحة من دول آخرى ، الا من التى يحددونها ، كما فعلوا عندما استوردنا الاسحلة القديمة والفاسدة من إيطاليا وأسبانيا . .

وبعد أن عرفت بأمر هذه الصفقة ، طلبت من الأمريكان أن ينفذوها ، مع تغيير فى بعض أنواع الأسلحة المتفق عليها . . وأبلغت هذا الطلب للسفير كافرى ، ولدالاس . . وقدمت لهما قائمة جديدة . .

وقدمت القائمة مرة ثالثة لوليم فوستر مساعد وزير الدفاع الأمريكى عندما زار مصر ، والذى قبلها مسرورا ، وطلب إرسال بعثة مصرية للتحدث مع المسئولين فى البنتاجون حول السلاح المطلوب . . وسافرت البعثة ، على رأسها على صبرى ، وعادت بعد ٨ أسابيع بخفى حنين .

ولم أحصل من أمريكا على سلاح ، سوى المسدس الذى أرسله لى أيزنهاور كهدية ، والذى لم أجد له ذخيرة مناسبة إلى الآن .

وعندما يئست من ذلك ، صرحت للصحافة :

« ولا بد أن نحصل على أسلحة حديثة من دولة ما ، وفى حالة أمتناع أمريكا والديمقراطيات الغربية عن مساعداتنا فمن البديهى فى هذه الحالة أننا سنلجأ إلى غيرها »

ولم أتصور أن يحدث هذا التصريح أثره بسرعة . .

فبعد أيام جاء لى السفير السوفيتى بنيامين سولود ، زيارة عادية ، نشرب فيها القهوة ، ونتدردش . . وأثناء شرب القهوة ، والدردشة فوجئت به يقول لى :

ـ لماذا تقفون مع الغرب ضدنا ؟

فقلت فى تهكم وسخرية واضحة :

ـ لأن الغرب ، خاصة الانجليز أصدقاؤنا . . أما أنتم فتحتلون بلادنا !

ولم يفهم سولود النكتة . . وتعجب من كلامى وقال مستنكرا :

ـ نحن نحتل بلادكم ؟

قلت وأنا أواصل المزاح الثقيل الذى لم يفهمه :

ـ نعم ولهذا نحن ضدكم !

وعندما أدرك سولود مزاحى ، هدأت أعصابه ، وانفرجت أساريره وحل الارتياح

محل الدهشة فى وجهه ، وقال :
ـ اذا كان الانجليز يحتلون بلادكم فلماذا لاتطردونهم .
قلت له :
ـ لأننا لانملك السلاح الكافى الذى يجعلنا نحارب ٨٠ الف جندى يحتلون بلادنا .
ثم خطرت على رأسى فكرة عابرة ، لم تأت لى من قبل . . فقلتها له على الفور !
قلت له :
ـ لماذا لاتقدمون لنا السلاح أنتم ؟
قال فى صراحة واستفزاز :
ـ إذا قدمنا لكم السلاح أستخدمتموه ضدنا
قلت له :
ـ كيف ؟
لم يرد . .
قلت :
ـ كيف نستخدمه ضدكم ؟ هل سنعبر سيناء وإسرائيل وسوريا وتركيا والقوقاز لنقاتلكم على أرضكم ؟
وأضفت :
ـ المنطق يقول إننا أصدقاء لكم ولايوجد سبب واحد للعداوة معكم . . فكل قطعة سلاح تشجعنا على محاربة الاستعمار .
وسكت سولود لمثوان ثم قال :
ـ هل السيد الرئيس جاد فيما يتحدث به ؟
قلت :
ـ تماما . . انني مستعد للحصول على السلاح من أى دولة تمدنا به .
فقال :
ـ سأكتب إلى موسكو وأرد عليك .
وبعد ثلاثة أسابيع جاء سولود ليزورنى فى بيتى . . وكان يوم جمعة . .
وقال لى :
ـ إن موسكو وافقت على إعطائكم السلاح من ناحية المبدأ ونحن ننتظر منكم قائمة ما تطلبون .
وفرحت جداً . .

فرحت لأن جيشنا سيصبح قويا
فرحت لأنني سأرد على الأمريكان . .

وأرسلت السفير الى عبد الحكيم عامر بصفته قائد الجيش ووزير الحربية ، ليعد له القائمة المطلوبة . . وتابعت الموضوع مع عامر فى حدود ما تسمح به مشاغلى . .

وكان عامر يقول لى دائما :

ـ ان الموضوع محل دراسة ، لأن تغيير السلاح سيسلتزم تغيير التكتيك فى الجيش .

واعتبرت الموضوع فى غاية السرية لا أتحدث عنه ولا أصرح به . .

ولم يكن حلم تنوع مصادر السلاح هو فقط ما كنت أسعى عليه . . كان هناك حلما آخر هو اعطاء الانجليز درسا لاينسونه ، بعد قطع المباحثات ، فى مقاطعة بضائعهم . . وقررت تقييد التعامل معهم بحظر توريد المواد الغذائية والمشروبات وخامات الصناعات والبناء إلى قواتهم فى القنال إلا بترخيص من وزارة التموين . كنت أعتبر هذا القرار هو الرصاصة الأولى فى معركتنا مع الانجليز بعد توقف المباحثات .

وقد خلق هذا القرار جوا متوترا بيننا وبينهم .

وفى هذا الجو المتوتر زار القاهرة ضيف صديق له خبرته الطويلة فى محاربة الانجليز وتحرير بلاده منهم . .

كان هذا الضيف هو الزعيم الهندى جواهر لال نهرو . .

وكانت زيارته فى ٢ يوليو ١٩٥٣ . .

وكان معه محمد على رئيس وزراء الباكستان ، وكانا فى طريقهما إلى بلادهما ، عائدين من لندن بعد مؤتمر للكومنولث .

وجلس نهرو معنا يتحدث عن تجربته فى مكافحة الاستعمار وعن سياسة العملاقين (أمريكا والسوفيت) اللذين يحاول كل منهما جذب دول آسيا وأفريقيا الى مناطق نفوذه . .

باختصار شرح لنا فكرة عدم الانحياز . .

فى ذلك اليوم كنا نحتفل باعلان الجمهورية . . ووقف نهرو إلى جانبى فى شرفة قصر عابدين ، لنطل على الجماهير الغفيرة التى احتشدت وراحت تهتف باسمى . . وقال :

ـ إن مشهد الجماهير هو أروع مشاهد الحياة .

ثم همس فى أذنى قائلا :
ـ إن المفاوضين البريطانيين سوف يجبرون على العودة إلى مائدة المفاوضات وقبول الجلاء غير المشروط ما دامت صلتك بالجماهير قوية إلى هذا الحد .
لم تكن هذه هى المرة الأولى التى أقابل فيها نهرو . . قابلته قبل ذلك أثناء توقفه فى مطار القاهرة فى طريقه إلى بلاده . . ومن يومها أعجبت بشخصيته . . والتقيت معه فى أفكاره الديمقراطية التى كان يتحدث عنها فى ثقة شديدة . . ويومها قال فى مؤتمر صحفى :
ـ أننى لا أرى ضرورة لقيام أحلاف عسكرية .
وبعد أن أنتهى المؤتمر الصحفى قلت له :
ـ إنك تحارب معنا فى معركتنا .
فقال :
ـ إن انتصارك فى معركة الأحلاف هو انتصار لنا .

وفى زيارة يوليو ١٩٥٣ خرجنا مع نهرو فى رحلة ألى القناطر ، وكان معنا جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر وصلاح سالم وخالد محيى الدين . . وكان كل كلام نهرو فى ذلك اليوم يدور حول أهمية الديمقراطية فى بناء الشعوب ودورها فى بناء التحرر الوطنى والتقدم الاجتماعى . . ولكن كل ماقاله نهرو ذهب فى الهواء .
وعاد نهرو إلى بلاده . .
وأحسست بقوة روحية تسيطر على ، جعلتنى أعطى الضوء الأخضر لبدء عمليات الفدائيين ضد الانجليز فى منطقة القناة . . وكانت هذه العمليات تتم تحت إشراف وقيادة ضباط من المخابرات المصرية ، ولم يكن للخبراء الألمان أى دور فيها كما أدعى ونستون تشرشل . . فالخبراء الألمان استخدمهم زكريا محيى الين ، بموافقتى ، فى تنظيم جهاز المخابرات ، ولم يكن هذا غريبا ، لأن المخابرات الأمريكية نفسها استعانت بالخبراء الألمان فى تنظيم عملها .
وبمجرد أن بدأت العمليات الفدائية فى القناة حتى أحتجت السفارة البريطانية ، وكان ردى دائما على احتجاجاتها المتكررة هو :
« إننى سأعمل على حفظ الأمن مع تقديرى للشعور الوطنى الملتهب »
وحمل لى هذا الاجتماع ذات مرة ريتشارد كروسمان عضو البرلمان البريطانى ، وقال :
ـ انكم تدفعون الأمور إلى حافة الصدام .

فقلت له :
- قل لحكومتك إن صبر مصر أوشك ان ينفد وأن فرصة الوصول إلى اتفاق مشرف لن تظل سانحة إلى الأبد .
وبعد أيام من لقاء كروسمان ، قال لى كافرى :
- إن حوادث الصدام بين مصر وبريطانيا تهدد باضطراب فى منطقة الشرق الأوسط وهى منطقة يهم أمريكا استمرار الهدوء فيها فى هذه الفترة التى التهبت فيها الحرب الباردة بينها وبين السوفيت .
فقلت له :
- إن مراوغة الانجليز كانت السبب المباشر فى قطع المفاوضات وفى عودة حرب العصابات .
وكما قلت من قبل :

عرض كافرى وساطة الأمريكان مرة أخرى بعد أن كانوا قد توسطوا فى تسهيل بدء المفاوضات .. واقترح أن يشتركوا فى المفاوضات كطرف ثالث ضمانا لنجاحها ولكنى ، رفضت هذا الاقتراح لاعتقادى بأن المصالح الأمريكية البريطانية أكثر اقترابا من المصالح المصرية الأمريكية .

وعرض كافرى اقتراحا آخر يتضمنه عرضا للوساطة بيننا وبين الانجليز بقصد تضييق شقة الخلاف وتحديد المحادثات إذا بدأت فى التفصيلات مما يزيد فى فرصة النجاح .. وقبلت ذلك على ألا يرتبط حديث الجلاء بموضوع تسليح القوات المصرية أو التعاون الأقتصادى أو موقف مصر الدولى من النزاع بين الكتلتين .
وقد كانت وجهة نظرى ، فى ارتباط المصالح الأمريكية أكثر المصالح البريطانية ، صحيحة ، فقد صرح دالاس بعد ذلك بشهور طويلة :
« إن بلاده لاتستطيع إنتهاج سياسة مستقلة عن حليفتها بريطانية وفرنسا فى الشرق الأوسط »
وإن كانت أمريكا ، فى نفس الوقت قد مارست ضغطا على بريطانيا ، أكثر من مرة ، للعودة إلى مفاوضات الجلاء .. لكن .. الضغط الأكبر فى رأيى كان الفدائيين المصريين فى القناة .
فقد كان الانجليز يماطلون ويسوفون فى عودة المفاوضات ، حتى تنتهى الانتخابات السودانية ، وقد أعلنت ذلك ، صراحة فى حفل بنادى الضباط أقيم لتكريم مديرى الجامعات المصرية وأساتذتها فى ٦ نوفمبر ١٩٥٣ ، فقلت :

ـ ان الحكومة البريطانية تتعمد تأجيل مفاوضات الجلاء عن مصر حتى تنتهى الانتخابات السودانية خشية أن يؤثر فوز مصر فى مفاوضات الجلاء على تلك الانتخابات فتساعد على إنجاح مرشحى الأحزاب التى تطالب بالاتحاد مع مصر .

وعندما انجلى الموقف فى السودان ، فى يناير ١٩٥٤ بفوز مرشحى الأحزاب المطالبة بالاتحاد مع مصر ، أضافت الأحداث الداخلية عوائق أخرى ، ومن هذه الأحداث اتهام الاخوان بالاعتداء على السفارة البريطانية والخلاف بينى وبين عبدالناصر .

وتخلى تشرشل عن منصبه فى رئاسة الوزارة البريطانية . .

وتولى أنطونى أيدن وزير الخارجية مكانه . .

وفى أول مارس ١٩٥٤ أعلن أيدن فى مجلس العموم :

ـ لايمكن لحكومتى أن تستأنف المباحثات مع مصر حول الجلاء عن منطقة القناة بسبب الأحداث الجارية فى مصر وفى منطقة القناة بالذات .

وكان أيدن يشير بهذه العبارة الى العمليات الفدائية ضد الانجليز والتى وصلت إلى مداها فى ديسمبر ١٩٥٣ .

وكرر سلوين لويد وزير الخارجية البريطانى نفس الكلام تقريبا .

وقبلت أن تخف هذه العمليات . .

وقبل الانجليز عودة المفاوضات . .

وقلت الى صحيفة الديلى هير :

« اننا نريد تسوية مع بريطانيا كما إننا لا نريد الاشتباك فى أى نزاع وأنما نريد أن ننهى النزاع القديم الى غير رجعة » وتكلمت عن مسألة الفنيين البريطانيين الذين سيستعان بهم فى صيانة القاعدة والتى كانت أحد أسباب قطع المفاوضات ، وقلت :

ـ انهم ينبغى أن يكونوا تحت اشراف الحكومة المصرية .

ومضيت أقول :

ـ لايمكن أن تروا انا غير معقولين . . أننا نريد أن تظل القاعدة قديرة على أداء وظيفتها ولكن فيما يتعلق بالفنيين فلاعتبارات تتعلق بسيادتنا فى بلادنا ينبغى أن يكونوا تحت أمرة الحكومة المصرية لأنهم فى الواقع سيكونون جنودا وأن كانوا سيرتدون الملابس المدنية وليس فى وسعنا أن نوافق على أن تبقى فى بلادنا قوات

أجنبية حتى ولو كانت مرتدية ثيابا مدنية ، خاصة اذا كانت هذه القوات تتلقى أوامرها من حكومة أجنبية .
وقلت :
ـ ان وجود الفنيين البريطانيين فى مصر وجعلهم تحت امرة الحكومة البريطانية يشبه استمرار الاحتلال ، ولا يوجد مصرى يقبل هذا ولا يمكن لأية حكومة مصرية أن توافق عليه . بل ان مجرد عرض مثل هذا الاقتراح يزعزع الثقة ويثير الشك .
كان على أن أذكر بنقاط الخلاف التى أدت الى قطع المفاوضات ، قبل عودتها ، من خلال الوساطة الأمريكية الجديدة . . وقد قبلت وساطة الأمريكان حتى لاتدخل أجتماعات المحادثات فى دوامة الأحاديث التى يجيد البريطانيون إثارتها لتضيع الحقيقة وسط التفاصيل الكثيرة .
وكما قلت من قبل :

« دارت الوساطة على مدة سحب القوات المعسكرة فى القناة وعلى المدة اللازمة لتصفية قاعدة القناة ، وقد تبين من المباحثات السابقة أن فيها من المنشآت والمستودعات ما أعد لتجهيز جيش قوامه مليون جندى للحرب فى الشرق الأوسط خلال أيام محدودة . . ولما لاح أن شقة الخلاف قد ضاقت إلى الحد الذى يرجى معه أن ينتهى الأمر بالاتفاق بدأت المحادثات للمرة الثانية .

ولم تقم صعوبات كثيرة لتحديد المدة اللازمة لسحب القوات البريطانية إذ اتفق على تحديدها بثمانية عشر شهرا . واتفق أيضاً على أن يتم ذلك تدريجيا ، وأن تحل القوات المصرية محل القوات المنسحبة أولاً بأول .

« كنت أعلق اهتماما كبيرا على أن تصبح قاعدة القناة فى نهاية المدة المذكورة مصرية تماما وتحت يدنا ، حيث كان هذا هو الضمان لتنفيذ الاتفاق على تصفية القاعدة . . وواجهتنا عند هذه النقطة صعوبات نشأت من اختلاف وجهات النظر .

« وكان الأمريكان يقولون إن قاعدة القناة لم تعد قاعدة بريطانية بقدر ما أصبحت قاعدة غربية استراتيجية أعدت للدفاع عن منطقة الشرق الأوسط بأكملها . . وإن تصفية هذه القاعدة فى الظروف الدولية الراهنة إنما تعنى نقلها إلى موقع آخر ما لم ينجل الموقف عن استبعاد وقوع الحرب تماما .

« ولذا كان الاتفاق على الجلاء مرتبطا بأن تكون المدة التى تحدد لتصفية القاعدة

كافية لنقلها أو لزوال خطر الحرب . . على أن تبقى خلال هذه المدة فى حالة تصلح لاستعمالها وأن تعود إليها القوات البريطانية عند الضرورة .

« ودار نقاش طويل حول مدة تصفية القاعدة . . اقترحت أن تكون ثلاث سنوات ونصفا بعد الثمانية عشر شهرا التى يتم فيها الجلاء . . فى حين كان الجانب البريطانى يتمسك بأن تكون المدة خمس سنوات ونصف السنة .

وحدث خلاف أكبر حول حق العودة للقاعدة إذا تمسكت بأن يحدد على نحو منضبط يقتصر على حدوث هجوم مسلح على مصر أو الدول العربية المشتركة فى ميثاق الضمان الجماعى العربى ، فى حين دخل الانجليز فى تعميمات حول العودة فى حالة خطر الحرب أو قيام حالة دولية مفاجئة ثم انتهوا إلى المطالبة بإضافة تركيا وإيران ثم استبعدوا إيران وأصروا على تركيا وأخيرا استبعدوها وأقروا وجهة نظرنا كاملة

« وكان الأمريكان يتوسطون لتقريب وجهات النظر خارج قاعة الاجتماعات . . وأستطاعوا أن يصلوا مع البريطانين إلى اتفاق بأنه إذا زدنا مدة التصفية تنازلوا عن عسكرة الخبراء . . بعد استشارات مع المختصين المصريين وافقت على ذلك .

ولكن فوجئت والمفاوضات تمضى فى طريقها بعدول الانجليز عما كانوا قد قبلوه بخصوص ضبط حالة العودة إلى القاعدة ، ملحين فى أن تشمل هذه الحالة أى هجوم على الشرق الأوسط وهو رقعة مائعة المعالم تضم إيران وتركيا .

ولم يقفوا عند هذا الحد بل ظهر من مذكراتهم الأخيرة أنهم يقصدون إلى بقاء القاعدة ذاتها بعد إنهاء مدتها .

وهنا كان الكيل قد فاض بى . .

وأعلنت مرة ثانية دون تردد قطع المباحثات .

ورغم أننى قطعت المفاوضات للمرة الثانية بلا تردد ، فإن الانجليز فى الحقيقة لم يكونوا على خطأ ، لتراجعهم فيما توصلنا اليه ، بشأن حالة العودة للقاعدة ، فقد أحسوا بالخلافات التى نشبت بينى وبين عبد الناصر ومجلس قيادة الثورة ، وأدركوا امكانية ، استثمار ، هذه الخلافات لصالحهم ، ولتحقيق مكاسب أكبر لهم .

ولم تكن الخلافات خارج قاعدة التفاوض معهم ، انما كانت داخلها أيضاً . .

فعندما كنت أجلس مع باقى أعضاء الوفدين المصرى والبريطانى على مائدة المفاوضات ، كنت أجد ظاهرة غريبة ، أقرب إلى لعب الصغار . . كان بعض الأعضاء المصريين يكتبون أوراقا صغيرة ويمررونها إلى جمال عبدالناصر ، الذى كان يقرأها ويشير إلى مرسلها بهزة رأس خفيفة . . ولاحظ الانجليز ذلك أيضاً . . ولأن هذه الحركة كانت لا تأتى الا من العسكريين فقط ، فقد أحس المفاوض الانجليزى بأن جبهة المفاوض المصرى بها ثقوب ، وغير متحدة ، وهذا ما كنت أسعى اليه وأنا فى القاعة ، أن نبدوا متماسكين ، متحدين ، لا خلاف بيننا ،لكن عبدالناصر كان له رأى آخر ، وكان يوحى بأننا على خلاف ، وكان يريد أن يثبت للانجليز أنه الرئيس الفعلى من خلال الحركات التى كان يقوم بها رجاله داخل القاعة أمامهم .

ويوم وقعت هذه الظاهرة أول مرة ، استدعيت جمال عبدالناصر بعد الاجتماع ، فى مكتبى وثرت فى وجهه ، وقلت له فى غضب لاحد له :

ـ ان تصرفاتك أمام المفاوضين الانجليز لا تضعفنى أنا وانما تضعف مصر . . أنت مسئول عن كل نتيجة نصل إليها ، لأن مثل هذه التصرفات تعلن أن بيننا خلافات . . وسوف يستفيد الانجليز منها وسيسعون إلى تعميقها . . وإذا كنت أقبل فيما بيننا فأنا أرفضه على مائدة مفاوضات العدو .

وأحنى عبدالناصر رأسه ولم يرد . .

وتصورت أنه استوعب الدرس . . لكننى اكتشفت أننى كمن يؤذن فى مالطا . . وعادت ريمة لعادتها القديمة .

وكانت هذه هى المرة الأولى التى أخرج فيها ما فى صدرى ، و أعلن عن خلافى مع مجلس قيادة الثورة بصراحة . . فحتى هذه اللحظة كنت أنظر الى أعضاء المجلس على أنهم أولادى أو إخوتى الصغار . . لكنى فى هذه الجلسة شعرت أنى أحمل عبئا لا أستطيع احتماله .

وقلت لسليمان حافظ دون أن أروى له حكاية الورقة :

ـ إنى أفكر فى الاستقالة .

وكانت هذه هى المرة الأولى التى أعلن فيها القرار .

ورفض سليمان حافظ أن أنسحب فى هذه الظروف الدقيقة .

وكانت قد وقعت قبل ذلك مفاجأة ، لم أعرها أهتمام أولم أصدقها فى وقتها ، لكنها

شغلتني بعد ذلك ، وأجبرت على تصديقها .
ففى أواخر عام ١٩٥٣ ، قال لى قائد حرس محمد رياض :
ـ أنا أحمل لك رسالة من المليونير أحمد عبود .
قلت له :
ـ عبود المليونير ؟
قال :
ـ نعم !
وتعجبت ، فليس لى صلة به ، وكل ما أعرفه عنه أنه كان يملك مشروعات كبرى معظمها مشروعات صناعية .
فقلت :
ـ ماذا يقول عبود باشا ؟
قال محمد رياض :
ـ كان عبود فى زيارة للولايات المتحدة للحصول على قرض أمريكى لتنفيذ مشروع للسماد فى السويس ، وهنا قال له الأمريكان أن عبدالناصر يتآمر ضدك هو وبعض أعضاء مجلس قيادة الثورة . . وقد طلب منه الأمريكان ابلاغك بذلك ، وقالوا له أنهم مستعدون للوقوف إلى جانبك للتخلص من جمال عبدالناصر ومجلس الثورة .
وفى الحقيقة أنا لم أشك كثيرا فى صدق هذه الرسالة ، فقد كان عبود صديقا للأمريكان فعلا . .
وكان ردى على عبود الذى حملته لمحمد رياض هو :

ـ أنا أعرف أنك صديق للأمريكان وأنا لا أسمح لك بمزاولة هذا النشاط مع رفضى البات لهذا العرض وأرسل لك تحذيرا بأننى سأصدر أمرا باعتقالك إذا واصلت هذا النشاط .
ونقل رياض رسالتى لعبود ، الذى أصابه الفزع من تهديدى له بالاعتقال ، لكنى ضحكت من رد فعله ، لأنه ليس من طبعى أن أعاقب رسولا حمل إلى رسالة مهما جاء فيها . .
ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى تصلنى رسالة من الأمريكان بهذا المعنى . .

فقد وصلتنى رسائل شفهية أخرى منهم ، خلال بعض الشخصيات العربية وكلها تؤكد أن عبدالناصر يخطط لعزلى وأن الأمريكان مستعدون للعمل بجانبى للخلاص منه ومن رفاقه فى مجلس قيادة الثورة . . وكنت أرد على من يحملها لى : بأننى لا أرضى ، ولا أسمح بأن أستعين بأجنبى واحد على أبناء بلدى . . ويبدو أن ردى على الأصدقاء الذين حملوا هذه الرسائل كان شديدا ، وغضبوا منه ، فابتعدوا عنى بعض الوقت ، لكنهم فهموا موقفى بعد ذلك وعذرونى ، وأصبحنا أصدقاء كما كنا .

كان الأمريكان فى الحقيقة يسعون جاهدين للتسلل داخل السلطة فى مصر ، ورغم أننى كنت فى صراع حاد مع عبدالناصر ، الا أننى رفضت الاستعانة بهم ، ورغم أن عبدالناصر كان يفعل المستحيل للتخلص منى ، فاننى لم أكن أعتمد فى وجودى الا على جماهير الشارع .

ويبدو أنهم عندما يئسوا منى قرروا التحالف مع عبدالناصر ، ضدى . فبعد قرارات ٢٥ مارس ١٩٥٤ ، قال خالد محيى الدين ان صحفيا فرنسيا اسمه روچيه استيفانو، أخبره أنه عرف بحكم صلته بالسفارات الأمريكية والبريطانية والفرنسية أن جمال عبدالناصر وبعض رفاقه أعطوا للأمريكان إشارة بالتساهل فى توقيع اتفاقية الجلاء وادخال تركيا فى حالة العودة إلى القاعدة وذلك ثمنا لتأييدهم له فى معركته ضدى .

وبعد شهور تبينت صحة هذا الكلام عندما وقع عبدالناصر مع بريطانيا اتفاقية الجلاء ٢٧ يوليو ١٩٥٤ .

وكانت هذه الاتفاقية تنص على :

١ ـ إلغاء معاهدة ١٩٣٦ وإحلال الاتفاقية الجديدة مكانها .

٢ ـ الاتفاقية الجديدة مدتها سبع سنوات وفى نهاية هذه المدة سيجلس الطرفان لاقرار صيغة الغائها .

٣ ـ ان جزءا من القاعدة البريطانية سيظل فى حالة تأهب للعمل فورا حسب النص التالى :

(أ) فى حالة هجوم أى قوة خارجية على مصر أو على أى دولة من دول الجامعة العربية ، أو تركيا ، فإن مصر سوف تقدم المساعدات الضرورية لتجهيز القاعدة وعليها أن تستعد لذلك .

(ب) فى حالة أى تهديد محتمل على الدول المذكورة فإن مصر وبريطانيا تقومان بالاستشارة الفورية وتبادل الآراء .

٤ ـ لبريطانيا الحق فى تحريك أى مواد منها واليها (القاعدة) ولكن بشرط أن تقبل الحكومة المصرية ذلك .

٥ ـ أن تجلو القوات الانجليزية من كل الأراضى المصرية فى خلال ٢٠ شهرا ابتداء من يوم توقيع الاتفاقية .

٦ ـ أن تنص الاتفاقية على أن قناة السويس جزء لايتجزأ من مصر لكن بشرط احترام حرية الملاحة حسب اتفاقية عام ١٨٨٨ .

٧ ـ أن تحظى بريطانيا بمركز الدولة الأولى بالرعاية فى استخدام التسهيلات المصرية .

وصدقت الدولتان على هذه الاتفاقية فى ١٩ أكتوبر ١٩٥٤ .

وكانت المفاوضات قد أستؤنفت بين البلدين للمرة الثالثة ، وفى هذه المرة رأس جمال عبدالناصر وفد مصر ، وفى هذه المرة وقع الاتفاقية . . وكنت منذ أزمة مارس لم أره سوى مرة واحدة وفى هذه المرة نصحته الا يبرم الاتفاقية قبل أن يستمع لملاحظاتى . . ولذا كانت مفاجأتى شديدة عندما وقعها بهذه السرعة .

وكانت ملاحظاتى فى ايجاز هى :

١ ـ وجود الفنيين الانجليز غير الخاضعين لسلطة الحكومة المصرية يضعف من سيادتنا على أرضنا .

٢ ـ قبول عودة القوات البريطانية فى حالة الهجوم على تركيا أمر يورطنا .

وأرسلت ملاحظاتى له ، لكنه كما هو واضح لم يأخذ بها .

وكما هو واضح أيضاً كانت الاتفاقية جزء من الصراع للتخلص منى .

وهناك دليل آخر سبق الاتفاقية على المساومة بين عبدالناصر وبريطانيا وأمريكا على حسابى .

فقد اختطف الفدائيون المصريون جاويشا بريطانيا فى منطقة القناة . . وهاج البريطانيون وطالبوا بعودته . . وحاصر القائد البريطانى مدينة الإسماعيلية وعزلها تماما للتفتيش عنه وأرسل انذرا لوكيل المحافظة بإتخاذ اجراءات عنيفة ضد المدينة . . ووصل الأمر الى البرلمان الانجليزى الذى ناقش الانذار وأقره :

ورفضت الأنذار . .

وأمرت وكيل المحافظة برفضه هو الآخر . .
وطلب مستر هافكى الوزير المفوض البريطانى مقابلتى لبحث الموضوع ، فرفضت .
وفجأة ظهر الجاويش فى باريس ثم فى لندن .

وعرفت أن بعض أعوان عبدالناصر هربوا الجاويش إلى الخارج كعربون محبة لعقد الصفقة الكبرى للتخلص منى . وتأكدت من ذلك عندما قرأت فى مذكرات الجنرال روبرتسون كبير المفاوضين العسكريين أن جمال عبدالناصر كان يتصل بهم سرا فى هذه المرحلة .

وفى الحقيقة أنا لم أرفض هذه الاتفاقية لأنها كانت جزء من صفقة للتخلص منى ، وانما للأسباب وللملاحظات التى ذكرتها وأرسلتها لجمال عبدالناصر ، وأيضاً لأنه لم يعرضها على الشعب فى استفتاء عام بعد الغاء الأحكام العرفية .
وبينى وبين نفسى قررت الا أصدق على الاتفاقية باعتبارى رئيس الجمهورية ، لكن اكتشفت أن الدستور المؤقت لا ينص على ضرورة أن يصدق رئيس الجمهورية على الاتفاقيات والمعاهدات .
وطلبت من سليمان حافظ أن يقول لى ما أفعله .
لكنه كان قد انسحب من الحياة العامة بعد حادث الاعتداء على السنهورى ومجلس الدولة .
وعلمت أن عبدالناصر عرض الاتفاقية على مجلس الوزراء ، وأن المجلس وافق عليها بالإجماع ، كما نشرت صحف اليوم التالى للاجتماع . . لكن فى الحقيقة لم يوافق المجلس لا بالاجماع ولا بالاغلبية . . فقد كان عبدالناصر يقرأ بنود الاتفاقية ، فلمح مظاهر الاعتراض على فتحى رضوان فقال له :
- لعل الأخ فتحى معارض .
فقال فتحى رضوان :
- فعلا لكنى أنتظر أن تفرغ من القراءة .
ولكن عبدالناصر لم يقرأ الاتفاقية كاملة فقد دخل عليه اسماعيل الأزهرى وبعض الوزراء السودانيين وانصرف جمال معهم الى مكتبه الخاص ، ثم عاد لينهى الجلسة ، دون أن يكمل القراءة .

ثم فوجئت بسليمان حافظ ينصحني بعدم التصديق على الاتفاقية فإن صدرت فليس أمامي الا أن أستقيل .

لكن د . وحيد رأفت نصحني بعدم الاستقالة واقترح على أن أسجل اعتراضي في كتاب رسمي ابراء لذمتي أمام التاريخ . . ووافقت على الاقتراح .

وكانت مذكرة وافية وتحمل كل ما كنت أريد أن أقوله ولم يعرف أحد بها ، لسنوات طويلة ، وأنا الآن أنشرها كاملة لابراء ذمتي أمام التاريخ :

١ ـ لقد أطلت النظر في الاتفاق الموقع بالأحرف الأولى في ٢٧ يوليو الماضي بيننا وبين الحكومة البريطانية وبالرغم من أن تفاصيل ذلك الاتفاق لم يتم تحديدها بعد ولا علم لي بها ، إلا أن الخطوط الرئيسية التي تم التفاهم عليها في يوليو كافية لتكوين فكرة واضحة وصحيحة عنه .

٢ ـ لاشك أننا بتوقيع هذا الاتفاق نربط مصيرنا بمصير دول الكتلة الغربية لمدة أقلها سبع سنوات وبالتالي سنعادي دول الكتلة الشرقية ولن يغفر لنا الاتحاد السوفيتي وأعوانه قبولنا مختارين بقاء قاعدة بريطانية في أراضينا . وسواء ظلت ادارة هذه القاعدة وصيانتها بيد القوات العسكرية البريطانية كما هو الحال الآن أم انتقلت إلى يد المدنيين البريطانيين الفنيين الخاضعين للاشراف العسكري البريطاني فإن الكتلة الشرقية تعلم أن هذه القاعدة سوف تستعمل ضدها حتما زمن الحرب .

٣ ـ فعلينا أن نتوقع تدابير انتقامية غاية في الشدة والعنف من جانب تلك الدول الشرقية اذا تأزمت الأمور . ولن تقتصر آثارها على منطقة قناة السويس وحدها بل ستعم في الغالب شتى أنحاء البلاد المصرية أو بالاقل المناطق الشمالية المكونة لدلتا النيل فنعرض مرافقنا ومراكزنا الحيوية ومدننا الآهلة بالسكان بما في ذلك عاصمة البلاد نفسها لأشد الأخطار . وحتى زمن السلم لا نستبعد ان ترد الدول الشرقية على الاتفاق بتضييق الخناق علينا اقتصاديا بقفل أسواقها في وجه قطننا ومحاصيلنا الأخرى ومنتجاتنا فيضطرب اقتصادنا القومي الذي تبذلون الآن قصارى الجهد لانعاشه ويزداد اعتمادنا وتتبعنا للغرب في هذه النواحي ويعود الانجليز من جديد الى التحكم في أسعار قطننا وسائر محاصيلنا والسيطرة على أسواقنا .

٤ ـ ولا يمكن أن تخفى هذه الاعتبارات على الكثير من المواطنين وان كانت المسائل الاقتصادية لدقتها لا يتناولها الا الخاصة فإن البلاد بأسرها مازالت تذكر ما

تعرضت له أبان الحرب العالمية الثانية وما أصابها من خسائر فى الأرواح والأموال بسبب الغارات الجوية لدول المحور . والشعب يدرك بفطرته السليمة أن تلك الخسائر لاتعد شيئا إلى جانب ما سوف يتعرض له من أهوال لو قدر لمصر ان تشترك بأية كيفية أو بأى نصيب فى الحرب العالمية القادمة التى تتجمع فى الأفق نذرها وبشائرها .

٥ ـ واتفاق ٢٧ يوليو عنى بتنظيم قاعدة السويس فى زمن السلم والحرب لصالح انجلترا أكثر من عنايته بموضوع جلاء الجنود البريطانيين عن الأراضى المصرية وامساكه عن الكلام عن التحالف أو الدفاع المشترك بين مصر وبريطانيا لا يكفى لاقناع الشعب بأنه خال منها ، مع النص فيه على بقاء قاعدة السويس لمدة أقلها سبع سنوات تحت الادارة الفنية البريطانية والاشراف العسكرى البريطانى والترخيص للقوات البريطانية على مختلف الأسلحة بالعودة اليها فى حالة الهجوم على مصر أو على احدى دول الجامعة العربية . . أو على تركيا من جانب دولة أجنبية ووضع مطاراتنا وموانينا وطرق مواصلاتنا وغير ذلك من التسهيلات تحت تصرفها ، مما يعيد الى الذاكرة نص المادة الثامنة وملاحقها من معاهدة الصداقة والتحالف الموقعة فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا .

٦ ـ فليس بغريب أن يثير أتفاق ٢٧ يوليو ١٩٥٤ الأنتقاد والمعارضة لدى فئة مخلصة من الأمة ولولا الرقابة الشديدة على الصحف والقيود الموضوعة حاليا على الحريات العامة لقويت هذه المعارضة وأودت بهذا الاتفاق كما حصل فى العراق فى عهد حكومة صالح جبر .

وإذا كان هدف بعض المعارضين للاتفاق هو مناوءة حركتنا لأغراض شخصية لا تخفى فلا شك أن البعض الأخر يعبر بحق عن مخاوف البلاد من أن يلقى بها فى حرب ضروس تهلك الحرث والنسل بسبب نصوص الاتفاق انفة الذكر وتنفيذها .

٧ ـ وتجنب البلاد ويلات الحرب رغبة طبيعية مشروعة تجتذب الأن بلادا عديدة فى آسيا وأوربا وتكسب كل يوم أنصارا لا فى بلد اثر الحياد كالهند فحسب بل وحتى فى انجلترا نفسها . ولقد سبق أن قلنا للشعب مرارا منذ حركة ٢٣ يوليو أن العهد الجديد لن يفاوض الانجليز ليحالفهم بل فقط لتنظيم الجلاء الناجز الشامل عن آخر جزء من أرض الوطن . ولذلك كانت صدمة للكثيرين وللرأى العام أن تسفر المفاوضات بعد الغاء معاهدة الصداقة والتحالف فى سنة ١٩٣٦ عن تحالف

جديد لمدة سبع سنوات يقرر خبراء الحرب والسياسة العالمين أنها أخطر سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية شأنا .

٨ - وزاد من هذه الصدمة ادخال تركيا بين الدول التي ينبغي الهجوم عليها من جانب الاتحاد السوفيتي أو غيره تحريك التزاماتنا الخاصة بالسماح للقوات البريطانية بالعودة الى مصر ووضع قاعدة القنال وموانينا ومطاراتنا ومواصلاتنا تحت تصرفها .

٩ - هذا فضلا عما جاء في الاتفاق هنا وهناك من أحكام تفيد الأعتراف لبريطانيا بوضع ممتاز سواء فيما يتعلق بتحليق طائراتها الحربية في جونا أو في الدفاع عن قناة السويس .

١٠ - وأخشى ما أخشاه أن يتخذ دعاة الانفصال في جنوب الوادي من توقيعنا هذا الاتفاق تكأه لتعزيز نشاطهم الانفصالي بحجة تجنيب الجنوب ويلات الحرب ، خاصة إن أرتباطات تركيا العديدةمع الباكستان ويوغوسلافيا واليونان وسائر دول منظمة حلف شمال الأطلس تجعل اشتراكها في الحرب العالمية القادمة أمرا محتوما ويجرنا الى هذه الحرب عن طريقها .

١١ - وليست هناك قوة تستطيع اقناع الشعب المصري بأن مصر ستكون مقصودة لذاتها بالهجوم أو بالإعتداء لاعتقاده الراسخ أن سبب ذلك وجود جيش أجنبي أوقاعدة أجنبية في بلادنا هي اللذان يوجه اليهما العدوان الروسي ، وان هذا الجيش أو القاعدة سيكونان الذريعة التي سيتذرع بها الروس لمهاجمة مصر .

١٢ - واذا كان من العسير اليوم تعديل الأسس التي تم التفاهم عليها في ٢٧ يوليو

فلا أقل من العمل على حصر الخطر في أضيق جدوده الممكنة وذلك بتحديد الأماكن التي تعود اليها القوات البريطانية والموانى التي يسمح لطائراتها الحربية بالهبوط فيها وقت الحرب أو السلم خلال مدة سريان ذلك الأتفاق وأن يكون مفهوما أن مغادرة هذه القوات الأجنبية لجميع الأراضي والمياه الأقليمية المصرية يجب ان يتم بمجرد انتهاء العمليات الحربية التي أستلزمت وجودها فيها .

١٣ - وان الألتزامات الخطيرة التي وضعتها على عاتق مصر وشعبها في اتفاق ٢٧ يوليو ١٩٥٤ والتي ستقتضيها الشيء الكثير في

الا نفس والأموال لتعطينا الحق الكامل فى أن نطالب الانجليز بمطالب مقابلة لاغنى عنها كتسليح جيشنا تسليحا كاملا بحيث تكون القوات المصرية فى البر والبحر والجو أحسن ما تكون إعدادا وأن تتحمل الحكومة البريطانية القسط الأكبر إن لم يكن بجميع النفقات الخاصة بتجهيز البلاد بأحدث الوسائل لوقاية المدنيين والمنشآت العامة من أخطار الغارات الجوية حتى لاتتحول مدننا ومنشأتنا العامة إلى أطلال فى الأسابيع الأولى من إعلان الحرب فضلا عن وجوب تحمل الحكومة البريطانية بجميع نفقات صيانة قاعدة السويس وإدارتها .

١٤ ـ والتسليم بأن تظل إدارة هذه القاعدة بين الفنيين البريطانيين طوال مدة السبع سنوات يجب أن لايغنى بحال من الأحوال عن إعداد الفنيين المصريين الذين سوف يحلون محلهم ومن الخير أن يتم ذلك تدريجياً ومنذ الآن سنة فسنة بحيث لا تنتهى تلك المدة حتى يكون جميع الفنيين بالقاعدة من المصريين الذين دربوا على ذلك تدريباً عاليا .

١٥ ـ وفى أعتقادى اننا مهما طالبنا وغالينا فى مطالبنا فلن يكون هذا شيئا يذكر إزاء الترخيص للقوات البريطانية بالعودة ثانية إلى الأراضى المصرية فى حالة الحرب وما يتبعه من تعريض البلاد لويلاتها . ولا أخفيكم أننى أشعر بالضيق والحرج بل هو أشد من الحرج كلما جال بخاطرى أن الحرب قد تقع خلال مدة السبع سنوات المتفق عليها وأتصور ما قد يصيب مصر خلالها .

١٦ ـ ولما كنتم تعلمون أن المشروع الذى أعدته لجنة الدستور ارتضى لمصر فى مستقبلها النظام الجمهورى البرلمانى ويلزمنى أن أستلهم ما أمكن هذا الوضع وهو يترك مسئولية الحكم بين الوزارة دون أن يحرم على رئيس الجمهورية إبداء النصح والتنبيه والتحذير عند الاقتضاء فها أنا أبدى لكم نصحى وملاحظاتى قياما بواجبى الرسمى والوطنى فى مثل هذه الظروف وإن خطورة هذا الاتفاق من حيث التزاماته وآثاره تحدونى إلى أن أطلب اليكم عرضه على برلمان يمثل البلاد تمثيلا صحيحا لبحثه وإقراره فلا نتحمل وحدنا ـ ونحن بشر عرضة للخطأ والصواب ولشتى المؤثرات ـ مسئولية اعتماده أمام التاريخ .

وفقنا الله جل شأنه إلى ما فيه الخير .

الفصل الثالث عشر

بداية التحول الاجتماعي

- أراد الأمريكان أن يحصلوا على مصر مجانا .
- ضحكت اسرائيل على أمريكا ونجحت فى اقناعها بعدم جدوى مساعدة مصر .
- مندوب من مجلس القيادة لحضور افتتاح شيكوريل بعد تجديده .
- توقعت أن تتقدم اسرائيل بمعاهدة سلام بعد تغيير الحكم فى مصر .
- الوحدة العربية تبدأ بالغاء تأشيرة الدخول ورفع القيود الجمركية بين الدول العربية .
- فتوى شيخ الأزهر التى جعلت فاروق يتخلص منه .
- تشجيع رأس المال الفردى والأجنبى كان من أهدافنا فى الخمسينيات .

قبل آن توقع اتفاقية ٢٧ يوليو مع بريطانيا ، كانت أمريكا تسعى إلى ملء الفراغ الذى سيتركه الانجليز فى مصر . . كانت أمريكا تحلم بميراث الامبراطورية العظمى .

ولكن الأمريكان كانوا يريدون أن يحصلوا على مصر مجاناً . . أو ببضعة أجوال من قمح المعونة . . ولم يكونوا على استعداد لأن يدفعوا أكثر من ذلك . . كأن يمدونا السلاح مثلا .

وأعتقد أن سر إحجام الأمريكان عن تقديم المعونة العسكرية لمصر هو تصورهم بإمكانية الاستفادة من الصراع الذى نشب بينى وبين عبد الناصر ، بحيث يقفوا بجانب عبد الناصر وينصرونه على فيصبح مدينا لهم بالسلطة . . وقد وقف الأمريكان بجانب عبد الناصر فعلاً . . لكنه لم يوف بعهده تجاههم .

وأعتقد أن هناك سببا آخر وراء هذا الإحجام هو موقف أمريكا المصيرى من إسرائيل . . فقد كانت إسرائيل تعارض المساعدات العسكرية التى تقدم لمصر وللدول العربية بحجة أن ذلك يهدد وجودها ، وقد انخدع الأمريكان بهذه الدعايات فعلاً .

وكان حلمى أن يسلح الجيش المصرى ويصبح جيشا قويا . .

وكان وراء هذا الحلم جرح غائر فى القلب بعد ما جرى لنا فى فلسطين . .

فقد كان سر هزيمتنا فى فلسطين هو ضعف تسليحنا . . وضعف عتادنا وأمكانياتنا الحربية . .

ووصمنا بهذا الضعف بأشد هزيمة ، وبأصعب دعاية مضادة ، حيث قيل أن سبعة جيوش عربية تحارب مجموعة من العصابات اليهود ، وأنتهى الأمر بفوز العصابات وهزيمة الجيوش العربية .

ولو كنا ، كما قلت ، حاربنا فى فلسطين على طريقة حرب العصابات ما كان جرى لنا ما جرى .

ولهذا كان قلبى يقفز من الفرح عندما وافق السوفيت على مدنا بالسلاح ، وهى الصفقة التى نفذها عبد الناصر فيما بعد ، وبنى عليها جزء من شهرته ، وتحديه للغرب .

كنت أعتبر هذه الصفقه ستحولنا إلى جيش قوى ، حقيقى ، لايتعرض للفضيحة التى عاشها فى حرب فلسطين .

ورغم أننى حاربت فى فلسطين ، وجرحت فيها حتى كدت أموت ، وحصلت فيها

على أعلى وسام ، الا أننى أرى أننا تورطنا فيها ، دون استعداد حقيقى . . كانت مظاهرة سياسية للملك فاروق . .

لكننا لم نتعلم من هزيمتنا فى حرب فلسطين . . ولم ننظر إلى أرض الواقع التى نقف عليها . . فقد أضاعت الحكومات العربية بمزايدتها السياسية فرصة الاستفادة من مشروع التقسيم الذى حاولت الأمم المتحدة فرضه بعد الحرب ، وقبلته إسرائيل . . وأعتقد الآن أن سبب رفض الحكومات العربية لمشروع التقسيم هو أنها لم تكن حكومات محررة . . وكان المستعمر الذى كان يعمل لصالح إسرائيل ، يدفع هذه الحكومات لضرب المشروع حتى تستفيد إسرائيل بالأراضى وبتعاطف الرأى العام العالمى .

وهذا الفهم جعلنى أقول لأدلى سيتفنسون الذى كان مرشحا للرئاسة الأمريكية عام ١٩٥٣ ، وزار مصر فى ذلك العام أيضا :

ـ « أعتقد أن من المناسب أن تعيش إسرائيل فى المنطقة كدولة رمزية مثل الفاتيكان ، ولاتكون لها أطماع توسعية فى الأراضى العربية »

وكان هذا ردا على كلامة الذى قال فيه :

ـ « إن إسرائيل والبلاد العربية يجب أن يعيشا معا » .

فقلت :

ـ إن اقتراحك يمكن أن يكون نقطة بدء للبحث فى استقرار الأمور فى الشرق الأوسط .

فى ذلك الوقت كانت إسرائيل دولة ضعيفة ، لكنها كانت تحت مظلة الحماية الأمريكية وتحت رعاية الحكومة السوفيتة ، أى أنها ببساطة كانت أمرا واقعا منذ وقف إطلاق النار فى حرب فلسطين .

وكانت إسرائيل فى ذلك الوقت مستعدة أن تعيش كدولة صغيرة وسط جيران كبار . . لكننا لم نكن مستعدين لذلك . . وأيضاً لم نكن نسعى جديا إلى تحرير فلسطين . . فقد كان شعار تحرير فلسطين وإزالة إسرائيل شعارا رفعته الحكومات العربية للأستهلاك المحلى ، ولاستمرار طرح قضية وطنية تلهى الناس عن القضية الاجتماعية أو الديمقراطية . . ولو كان هذا الشعار حقيقة ما تحول إلى هزائم وكوارث واحتلال وقوة إضافية لإسرائيل .

وفى المقابل كانت إسرائل تبدو ، ولو أمام الرأى العام العالمى ، دولة صغيرة

ضعيفة ، تريد السلم ، وتحلم بعلاقات حسن الجوار مع جيرانها الأقوياء .. العرب .

وفى يقينى بالطبع أن هذا غير حقيقى .. فلم يحمل العرب لليهود فى أى يوم من الأيام أية كراهية أو اضطهاد .. بل أن اليهود لم يتعرضوا عبر تاريخهم الطويل لأى اضطهاد عنصرى أو دينى وسط المسلمين ولا المسحيين العرب .
ففى تاريخ مصر الحديث يهود وصلوا إلى أعلى مراكز الدولة .. كانوا مثلا وزراء .

وحتى عام ١٩٥٥ كان يعيش فى مصر حوالى ٨٥ر٠٠٠ يهوى ولدوا فيها .. وكانت لهم نفس الحقوق التى يتمتع بها باقى المصريين .. فقد كانت الثورة حريصة فى البداية أن تفرق بين الصهيونية واليهودية .. وبين إسرائيل والمجتمع اليهودى الذى يعيش فى مصر .. وعند افتتاح شيكوريل اليهودى محله الجديد ، بعد الذى احترق فى حريق القاهرة ، أرسلنا أحمد أنور قائد البوليس الحربى مندوبا عن القيادة ليحضر الافتتاح ..

وأكثر من مرة حرصت على أن أزور معابد اليهود فى القاهرة والأسماعلية فى يوم كيبور ، وأمضيت وقتا طويلا مع الحاخام الأكبر حاييم ناحوم الذى كان عضوا فى مجمع اللغة العربية والذى كنت أدعوه دائما لحضور المناسبات الرسمية مع شيخ الأزهر ، وبطريرك الأقباط ..

وفى الحقيقة كنت أتوقع فى ذلك الوقت أن يتقدم الإسرائيليون بمعاهدة سلام ، وربما قبلنا هذه المعاهدة فى ذلك الوقت ، على شرط الا يكون السلام على حساب وسلامة العرب الموجودين هناك أو على حساب الفلسطينين .. وعلى شرط أن تقنع إسرائيل جيرانها العرب أنها مستعدة للحياة ومستعدة أن تترك الآخرين يعيشون أيضاً ..

وقد قلت فى ذلك الوقت :
إنه لكى تكون إسرائيل دولة معترفا بها ولكى تكون دولة معتمدة على نفسها يجب أن تشترك فى تجارتها السلمية مع الدول العربية لصالح الجميع .. وسوف تظل المقاطعة العربية لها إلى أن تثبت بإخلاص أنها مستعدة للعيش فى سلام مع جيرانها .

وبدلا من الشكوى فإن الاسرائيلين يفعلون خيرا اذا تقدموا ببنود اتفاقية سلام إلى الجامعة العربية وإذا ما تم الصلح فإننى أعتقد أن المقاطعة العربية سوف ترفع وتعود الحياة التجارية بطريقة حرة بين دول الشرق الأوسط وعندئذ تكون الجامعة العربية قادرة على أن تركز جهودها على إقامة اتحاد فيدرالى عربى .
وفى ذلك الوقت ، كنت أرى أن إسرائيل ليست هى عدونا الأول ، وإنما إنجلترا ، التى تحتل قناة السويس ، وتضع على أرضنا أكثر من ٨٠ الف جندى من جنودها .

وكثيرا ما تعجبت لموقف الجيش المصرى الذى يعبر عدوه الحقيقى ليحارب عدوا آخر . . يترك الانجليز ويحارب اليهود . . ولكن . . لاشك أن هذا الموقف كان لصالح الانجليز . . الذين سمحوا لنا ، أن نسرق أسلحة من مخازنهم لنحارب بها فى فلسطين . . كانوا يعرفون بمثل هذه التصرفات أنهم يبعدوننا عن الهدف الذى كان علينا أن نلتفت إليه . .
وكثيرا ما تساءلت :
« هل يرضى الانجليز أن ندخل معركة لايرضون عنها » ؟
وكانت الأجابة بالطبع :
ـ لا !
لذلك كنت أعتبر الانجليز ، بعد الثورة هم هدفنا الأول ، وتحرير بلادنا منهم هى مشكلتنا الأولى ، أما مشكلة فلسطين ، فكانت استراتيجيتنا فى التعامل معها ، كما قال جان ماند لستام ، هى « الاقتراب الحذر والمعقول » منها .
وكما قلت من قبل :

إن ديفيد بن جوريون أدلى بتصريحات يتمنى فيها النجاح لثورتنا . . وأعلن سياسة جديدة للأنفتاح على مصر « الجديدة » . . وتحدثت جريدة « هاآرتس » عن فرص الحل السلمى مستندة على إمكانيات وضحت فى اتصال على ماهر رئيس وزراء مصر ، بزعماء الوكالة اليهودية خلال الفترة بين ١٩٣٦ ، و١٩٤٢ ، وإلى بعض تصريحات للدكتور محمد فوزى سفيرنا فى لندن ، والذى أكد على إمكانية التعايش السلمى بين العرب وإسرائيل .
كما أن بعض الكتاب الاسرائيليين تفاءلوا عندما عرفوا أن جمال عبد الناصر الذى كان على اتصال ببعض ضباط المخابرات الاسرائيلية فى حرب فلسطين ، هو أحد رجال الثورة .

وقد كان من الممكن أن تستمر علاقة الثورة بالقضية الاسرائيلية ـ الفلسطينية هى علاقة الاقتراب والحذر المعقول ، فإذا ما جاء الوقت المناسب ، سارعنا بالتدخل المناسب . . لكن . . أراد جمال عبد الناصر أن يكون زعيما مهما كان الثمن . . فبعد أن أضاع فرصة الوحدة بين مصر والسودان جرى إلى وحدة فاشلة بين مصر وسوريا . . وبعد أن أعطى لبريطانية شروطا أفضل للبقاء فى قاعدة قناة السويس ، سارع بتغطية الموقف بالمزايدة بقضية فلسطين ، حتى انتهى بنا الأمر باحتلال سيناء فى يونيو ١٩٦٧ .
وكان خطأ العرب جميعا وخطأ الفلسطين هو أنهم لم يؤمنوا ولم يعترفوا بالأمر الواقع ، الا بعد أن يفرض عليهم أمرا واقعا آخر أشد وأصعب . . فقد رفضوا مشروع التقسيم ، لكنهم عادوا وعملوا به بعد هزيمة ١٩٦٧ . . ورفضوا عودة أراضيهم مقابل الاعتراف باسرائيل وعادوا وعملوا بهذا بعد أن رفضت اسرائيل . . وهكذا من خطأ إلى آخر حتى وصل الأمر بأن أصبح الفلسطينيون يقاتلون بعضهم البعض بدلا من أن يقاتلوا الاسرائيليين .

وكما دبت الفرقة بين أبناء الهدف الواحد . . دبت أيضا بين أبناء الدول العربية المختلفة . . وكان لنا دورا كبيرا فى ذلك . . فقد فرقنا ، رغم شعارات الوحدة التى رفضناها فى نهاية الخمسينات والسيتنات ، بين العرب . . ووصفنا بعضهم بالثورية . . ووصمنا بعضهم بالرجعية . . ولم نحاول أن نزيل ما فى صدورهم من أحاسيس ضد الثورة وضد مصر ، بل سعينا إلى زيادتها . . وهذا كان مفاجأة لى . .
فلم يكن هذا ما أتفقنا عليه فى سنوات الثورة الأولى . .

كان أتفاقنا أن نقرب العرب الينا لا أن نبعدهم . . وأن نوحدهم لا أن نفرقهم . . وأن نساعدهم لا أن نحاربهم . . وأذكر أننى ساعة أن أديت فريضة الحج عام ١٩٥٣ ، لم يستقبلنى الملك عبد العزيز آل سعود وأدعى أنه مريض . . كنت أعرف أن فى صدره بعض الألم من بعض الكلام الذى قيل ضده من بعض رجال الثورة . . وهمس فى أذنى البعض الا أذهب الى زيارة الملك فى الطائف . . وأن أعود بعد الحج مباشرة الى القاهرة . . لكننى رفضت السماع لهذه النصيحة ، وقررت أن أذهب بنفسى الى الملك . . وقلت للملك عبد العزيز :

ـ أعرف أن صلتك قوية بالملك فاروق لكننا قمنا بثورة الجيش لنزيل الفساد من مصر وليس من أهدافى تصدير الثورة اليكم كما قيل أو إلى أى بلد عربى آخر . . إننا نحترم كل نظم الحكم العربية ، وندرك أن لكل بلد طبيعته الأقتصادية والأجتماعية الخاصة به . . ونؤمن أن ما ينفع لبلد لاينفع لبلد آخر . .

ـ إننا فى مصر نقدر ذلك العمل العظيم الذى قمتم به من أجل توحيد الجزيرة العربية . . ونحن نعرف أنك ستكون معنا إذا سعينا إلى تحقيق وحدة السياسة الخارجية بين العرب ووحدة منهاج التعليم وأن يكون للعرب جيش موحد ، مع بقاء جيش عربى فى نفس الوقت لكل بلد عربى . . إن الوحدة ليست أندماجا . . وليست سلطانايفرضه القوى على الضعيف ، وأنما هو عمل فيه مصلحة الجميع . .

وأنا كنت مؤمن بهذا الأسلوب فعلا . . أسلوب تقريب العرب ودمجهم فى مصلحة واحدة . . ولكى تتحقق الوحدة الكاملة لابد أن نمشى خطوات قصيرة . . تتبعها خطوات أكبر . . وهكذا . . كأن نبدأ مثلا بالغاء تأشيرة الدخول بين البلاد العربية . . ثم نرفع القيود الجمركية . . ثم نوحد مناهج التعليم . . ثم نقيم مشروعات مشتركة . . ثم . . ثم . . إلى أن نصل إلى الوحدة الكاملة ولو بعد عشرات السنين .

وعندما قلت للملك كل ما عندى ، قام ليضع يده فى يدى ، ثم قال :

ـ أن مصر والسعودية حليفتان وصديقتان ولن ينفصل جسر الارتباط بينهما .

وفتح الملك قلبه وقال :

ـ لقد حذرنى البعض منك ونصحونى بالحيطة منك خاصة عندما علمت أنك ذاهب إلينا للحج .

وخرجنا أصدقاء . .

وأهدانى سيفا ذهبيا أهديته للمتحف الحربى .

وحدث موقف معاكس تماما عندما جاء نور السعيد إلى مصر . .

كان معه مشروع لاتحاد البلاد العربية المتقاربة . . السودان ومصر وليبيا مثلا . . والعراق وسوريا والأردن مثلا . . تونس والجزائر والمغرب مثلا . . السعودية والخليج واليمن أخيرا .

لكننى لم أوافق على المشروع . . واعتبرته خرافة . . فقلت له :

ـ لا أريد أن أقفز فوق الحواجز لأسعى للوحدة قبل أن يتم جلاء الانجليز عن مصر .

لكنه لم يقتنع وأسهب فى إبراز مزايا المشروع اقتصاديا . .

فقلت له :

ـ إننى لا أريد جامعة عربية أخرى يباركها الانجليز وهم مازالوا يحتلون الدول التى تسعى أنت لربطها بمصر .

وقلت له :

ـ إن الوحدة لاتفرض بالقوة وإنما تأتى بالواقع والمصلحة . . إن علينا أن نوحد أفكارنا . . ونوحد مصالحنا . . ثم نوحد بلادنا .

لكن . .

ما رفضته وأنا أحكم مصر ، قبلوه من جاءوا بعدى . .

وكانت النتيجة نهاية أسوأ من البداية . .

كنت أرى أن نعالج متاعبنا الداخلية قبل أن نسعى للارتباط بغيرنا . . خاصة أن متاعبنا كثيرة . . انجليز يحتلوننا . . وفساد لايزال يمد جذوره فى التربة المصرية . . إقطاع يمص دماء الفلاحين . . فقر يشمل أكثر من نصف السكان . . جهل لم ينج منه سوى ١٥ ٪ فقط من المصريين . . ظلم اجتماعى لاحد له ولا ضمير . . ومتاعب اقتصادية واجتماعية لاحصر لها . .

كانت الأمور قد وصلت إلى منتهاها يوم قامت الثورة . . وأنا أعتقد أن الالتفاف السريع من جماهير الشعب حولنا كان سببه انهيار إلى هذا المستوى .

إن مستوى الكارثة التى كانت فيها جماهير الشعب قبل الثورة مباشرة هى التى حولت ٢٣ يوليو من انقلاب عسكرى إلى ثورة شعبية ، يلتف حولها الناس ولايعاديها أحد منهم .

فقبل الثورة مباشرة كانت كثير من القيادات الحزبية تتكلم عن الاصلاح ولا تعمل به . . وتتحدث عن الجماهير دون أن تعرفها . . وكانت كلمات مثل الفقر والجهل والمرض مجرد كلمات يتحدث بها المثقفون ويتاجربها أصحاب النفوذ ، دون أن يزيلوها ، أو يحاولوا ، من قاموس الحياة المصرية .

ووصلت المأساة بهذا الشعب إلى حد أن ارتفعت البطالة ومعها الأسعار إلى حد صعب أن يتعايش معه . . وأضربت فئات مختلفة ، ومنها ضباط البوليس ، الذين

كان عليهم أن يفضوا المضربين .
وأعترف أننى لم أكن ، فى بداية الثورة ، أملك فكرة واضحة عن الأسلوب المناسب لتغيير المجتمع المصرى ، لكن كنت مقتنعا بما كان يكتبه د . عزيز فهمى ود . محمد مندور وأحمد حسين وغيرهم عن العدالة الاجتماعية . . وكنت أعرف أن الثورة يجب أن ترتبط بالطبقات الدنيا . . الحفاة . . والفقراء . . والجائعين . .

وكانت الضربة الأولى ، كما قلت من قبل ، هو قانون الاصلاح الزراعى . .

كنت مقتنعا بضرورة اعادة توزيع الأرض توزيعا عادلا لإصلاح الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى مصر ، وذلك لأننى كنت مؤمن بأن الحياة الديمقراطية السليمة التى كنت أسعى لفرضها لايمكن أن تقوم دون تحرير الناخب من سلطان مالك الأرض ومن نفوذ لقمة العيش . .
ولكن رفضت المشروع الذى قدم لى ، لعدم إثارة العداوة بين الملاك القدامى والملاك الجدد ولعدم تفتيت الملكية ، وللأعباء الادارية والمالية التى ستكلفها الدولة من إنشاء وزارة للاصلاح الزراعى .
وبسبب أغلبية مجلس الثورة مر المشروع ونفذ .

وبعد قانون الاصلاح الزراعى ، فرضت قانون تخفيض إيجارات المساكن بنسبة ١٥ ٪ . . وألغيت الأوقاف ، عدا الأوقاف الخيرية . .
وألغيت البوليس السياسى . . ورفعت مرتبات الجنود من ٦٩ قرشا فى الشهر حتى وصلت إلى ٣ جنيهات . . وسعيت إلى تحرير الأزهر من قيود الارتباط بالحكم . فأصدرت قرارا بحل جماعة كبار العلماء . . وبدأت مواجهة شرسة من أجل تحديد النسل ، وتخفيض حجم المشكلة السكانية . . وسعينا لادخال مياه الشرب والجمعيات التعاونية والوحدات الصحية فى القرى . . وشددنا العقوبة على الاتجار بالمخدرات . .
وكان وراء كل قرار من هذه القرارات قصة أو معركة مستقلة . .
خذ مثلا ، معركة الأزهر . .
كان من المعروف أن الملك يحكم مصر بالجيش والأزهر . . الجيش يحميه والأزهر يبرر تصرفاته وقراراته . . وكان الملك قادرا على أن يطيح بمن يعارضه من مشايخ

الأزهر .. كما حدث مع الشيخ عبد المجيد، شيخ الأزهر الذى قال أثناء رحلة الملك إلى فرنسا بالباخرة المحروسة :
ـ تقتير هنا وإسراف هناك ..
فأصر الملك على قبول استقالته .

وجاء الشيخ أحمد حمروش ليصبح شيخا للأزهر ، لكن الشيخ حمروش أفتى بأباحة دم الانجليز فى منطقة القناة .. فتخلصوا منه بعد إقالة حكومة الوفد ، وعاد الشيخ عبد المجيد سليم .
لكننى لم أسع لممارسة نفس اسلوب الملك فى السيطرة على مشايخ الأزهر ، لكننى اخترت فى البداية لمشيخته رجلا بعيدا عن تيارات السياسة المتلاطمة هو الشيخ محمد خضر حسين الذى لم يستمر فى منصبه طويلا .

وأحسست أن الأزهر يجب أن يجدد دمه بشباب مشايخه .. الذين دفعهم الاستقرار إلى الجمود وعدم ملاحقة العصر .. فأصدرت قرار حل هيئة كبار العلماء ، وحددنا سن العضوية فيها ما بين ٤٥ إلى ٦٥ عاما ، فخرج ثلاثة من مشايخ الأزهر السابقين هم الشيخ عبد المجيد سليم والشيخ إبراهيم حمروش والشيخ خضر حسين وكانوا جميعاً فوق السبعين .
وعندما قررنا تحديد النسل ، أو ضبطه ، واقتحام المشكلة السكانية ، قال شيخ الأزهر فى سبتمبر ١٩٥٢ :
ـ الدعوة لتحديد النسل هدم لكيان الأمة وجريمة فى حقها .
وتبعه بطريرك الأقباط قائلا :
ـ تحديد النسل جريمة لاتستند الى حقيقة الدين واعتراض على مشيئة الخالق .
ولم أقتنع بهذا الكلام ..
فأنا رجل مؤمن .. وأعرف دينى جيدا .. وأعرف حقيقة جوهره .. فأحسست أن ذلك تخلفا عن طبيعة العصر .. وأحسست أن من الضرورى أن يرتبط رجل الدين بروح العصر واقترحت ضرورة أن يدرس الأزهر علوم الحياة بجانب علوم الدين .
أما تخفيض الايجارات وضبطها بقانون فقد كان محاولة للحد من مغالاة أصحاب المساكن ، وحماية لسكان المدن من الطبقة المتوسطة .. وكان أحد الأسباب التى

دفعتنى لإلغاء البوليس السياسى ، الافتراء الذى كان يعامل به الوطنيين . . وقد قرأت ضمن ملفات الملك السرية ، والتى كانت تصل من البوليس السياسى ، تقريرا بخط يد حسين سرى عامر ، يقول فيه :

« اللواء على نجيب قائد قسم القاهرة شقيق اللواء محمد نجيب مدير المشاة يسيطر على ضباط حامية قسم القاهرة كلها وعددهم ١٥٠٠ ضباط وطبعا مطلوب من الشقيق مساعدة شقيقه .

الحركة القائمة الآن يغذيها الوفد لشطر الجيش وتسلل الحزبية لصفوفه .

الأسماء التى نشرت بجريدة المصرى يوم ٢٨ ديسمبر ١٩٥١ لمجلس ادارة النادى كلهم من الضباط الذين يسيطر عليهم هؤلاء وتتخذون منهم تكأة لإفساد الجيش وقد ساعدهم فى نشر ذلك بالمصرى الصاغ ثروت عكاشة شقيق حرم أحمد أبو الفتح رئيس التحرير .

« كانت المنشورات السرية للضباط الأحرار توزع فى فترات ، أما بعد تعيين محمد نجيب مديرا للمشاة فقد صارت توزع دورية وبتواريخ كالنشرة الأولى والثانية التى وزعت وهى بنفس الحبر الذى وزع به منشور الأعضاء والرئيس الذى يريدون أنتخابه لمجلس إدارة نادى الضباط أمس واليوم والتى فيها تم انتخاب محمد نجيب رئيسا للنادى » .

إلى هذه الدرجة وصل انحطاط القيم بضابط يحمل درجة لواء . .

وقد سمحت بنشر هذا التقرير للتدليل على فساد قيادات العهد السابق . . ولأنى كنت مؤمنا بضرورة مصارحة الشعب بكل شىء . . فالتحول الاجتماعى بدون حرية خراب . . والتحول الاجتماعى بدون ديمقراطية هبة من الحاكم . . يمكن أن يسحبها .

وفى كل قرار كنت أتخذه ، كنت ألجأ للخبراء وأهل المعرفة . .

فإذا ما قرأت رأيا أعجبنى ، استدعيت صاحبه وناقشته فيه . . وإذا ما قرأت فكرة ، طلبت من صاحبها أن يحولها إلى واقع . . وحدث أن قرأت مقالا للدكتور سيد عبد الواحد فى جريدة المصرى ، يتوقع فيه أن تحدث أزمة خانقة فى المواصلات والمرور إذا لم نسارع بالتخطيط لمواجهتها . . واقترح د . عبد الواحد ان ننفذ مشروع مترو الأنفاق . .

كان منذ ٢٨سنة تقريبا . .

وكانت تكلفة الكيلومتر أيامها لاتزيد عن ٦٥٠ الف جنية وهى الأن تصل على ما أسمع إلى ٧ ملايين جنية .
وطلبت من وزير الواصلات أن يناقش فكرة د . عبد الواحد ، لنرى كيف يمكن تنفيذها .. لكن .. ضاعت الفكرة بعد أن اعتقلت .. ولم يؤخذ بها الا فى الثمانينات .

وقد كنت من أنصار تنوع مصادر الدخل القومى .. وأن لانعتمد على الزراعة كل هذا الأعتماد الكبير .. كنت مع التصنيع .. ولكن ليس مع هذا التصنيع الفجائى الضخم الذى دفعنا إلى إهمال الزراعة ، وتحولت مصانعه إلى دعاية سياسية وخسارة اقتصادية .. كما حدث مثلا فى صناعة الحديد والصلب .. فقد نصحنا الخبراء الأجانب عندما فكرنا فى ١١ فبراير ١٩٥٤ فى تأسيس شركة الحديد والصلب أن لانفعل ذلك ، لأن التكلفة الاقتصادية للحديد والصلب المصرى لن تكون مجزية .. لكننا لم نسمع هذه النضيحة .. وسعدنا بالكلام الدعائى عن هذه المصانع ..

كنا نقول : إذا كانت الهند وتركيا وجنوب أفريقيا قد أقامت التصنيع فى هذا العصر ، فلماذا لاتقوم مصر بذلك أيضاً ؟ وعلى ذلك قامت صناعات مختلفة كإطارات السيارات وبطاريات العربيات والأدوية والنسيج وصناعة الورق من مصاصات القصب .

وكان لابد فعلا من التصنيع ..
لكن كان علينا أن نلجأ إلى التصنيع التدريجى ، لا الفجائى .. أن نلجأ إلى الصناعات الاستهلاكية ثم الوسيطة فالثقيلة ، لاأن نصنع كل شيء بلا حساب ..

وقد كان عندنا نماذج رائعة كان لابد أن نمشى على طريقها مثل طلعت حرب .. لكننا كنا نتصور أننا يمكن أن نفعل المستحيل وأن نصنع المعجزات وأن لاشيء يمكن أن يقف أمامنا ..
وكانت النتيجة هو ما نعيشه الآن ..

صناعات تخسر . . وبضائع عاجزة على المنافسة . . ودول كثيرة بدأت بعدنا أصبحت أفضل منا . . وعمال يعملون أحيانا أقل مما يتقاضون . . وحقوق بلا واجبات . . وتسيب . . وبطالة مقنعة . . وروتين شرس .

ولقد حددت فى ١١ أكتوبر ١٩٥٢ سياستى الاقتصادية أثناء اجتماعى فى الغرفة التجارية مع رجال الاقتصاد والمال والصناعة فقلت لهم :
ـ أنا بوجه عام أستطيع أن أقرر أن سياستنا الاقتصادية والمالية تتلخص فى :
أولا ـ العمل على الاستقرار الاقتصادى وهذا هو أهم ما نعمل على تحقيقه بتركه للمختصين ليدرسوه ويضعوا الأسس اللازمة له ـ نحن لانتدخل مطلقا الا عندما تقضى الضرورة بذلك وبعد استشارة المتخصصين بالأمر .
ثانيا ـ العمل على تشجيع استثمار رؤوس الأموال الأجنبية ورؤوس أموال الأفراد داخل القطر لتستثمر فى الأوجه النافعة لتنمية الاقتصاد وتقويته .

كما أننا نعمل على إحاطتها بكل الضمانات اللازمة لتشجيعها للمضى فى هذا السبيل ، كما أننا نعمل على تشجيع الأفراد والهيئات ليزداد نشاطها الإقتصادى وبالتالى يزداد نمو الثروة القومية وهذا هو الركن الأول من نهضتنا .
ثالثا ـ عدم التدخل من جانبنا فى هذه الشئون ومحاربة كل شىء يرمى إلى الطفرة أو إلى تغيير فجائى بقدر مانستطيع بل وأكثر من ذلك أقول أننا نشعر جميعا بشدة الحاجة إلى معاونة حضراتكم لانكم أنتم عماد النهضة ـ بل أنكم كنتم أكثر من هذا كما أرجو ألا يضن أحد من حضراتكم علينا بأية ملاحظات أو نظريات أو أفكار لها قيمتها فى نهضة البلاد اقتصاديا كما أننا نعمل دائما على ملاحظة حالة العمال ونقوم ببث الدعاية بينهم حتى يكونوا بالنسبة لكم بمثابة الجندى تجاه قائده فى الجيش .

وبالطبع انقلبت كل هذه الأسس بعد أن أقلت من الحكم . . فزع رأس المال الفردى . . أصبح العمال هم القادة . . لم تعد هناك ضمانات للاستقرار أو للاستثمار . . كل شىء كان ينفذ بأسلوب الطفرة . . وضاع أهل الخبرة وجاء أهل الثقة . . ودخل الضباط كل المشروعات والمرافق . . من إدارة المصانع إلى لجان الاقطاع . . ومن التعاقدات الخارجية الى تسيير الأتوبيسات . . ومن إعداد الدراسات الفنية إلى فرض القوانين الملائمة لهم .

إن المشروعات الضخمة التى أقيمت فى الستينات ، كانت بلا تخطيط ، وبلا كوادر تديرها . . كانت مبانى بلا معانى . . وكانت دعاية لاضرورة أقتصادية . .
ووصل التزوير فى بعضها إلى حد الاعلان عن إنتاجه السنوى دون أن يفتح المصنع أصلا .
ووصل التزوير إلى نكتة أطلقت فى سماء القاهرة مع القاهر والظافر .
حتى عندما أقيم المشروع الضخم المسمى بالسد العالى ، كان الاهتمام بالجانب السياسى والدعائى فيه أهم وأكبر من الجانبين الاقتصادى والفنى . .

كان لابد أن نقيم المشروعات المكملة له ، وإلا فقدنا الكثير من المميزات التى كنا نتمتع بها قبل بنائه . وهذا ما حدث فعلا . . فجاءت مميزات السد أقل من عيوبه .
لقد كانت كل الدراسات الفنية ودراسة جدوى المشروع متوافرة أمامنا وأنا لا أزال بعد رئيس للجمهورية . . وعندما كنا نناقشها فى أحد اجتماعات مجلس الوزراء ، نبتت فى رأسى فكرة إرسال بعثات اقتصادية إلى مختلف دول العالم بما فيها الدول الاشتراكية ، للاطمئنان على امكانية تمويله بلا متاعب .
فقال أحد الوزراء :
ـ لكن هذا قد يغضب أمريكا وبريطانية ونحن مازلنا معهما فى حالة صراع .
وكما قلت من قبل :
لم أقبل هذه الحجة بل اعتبرت اتصالنا بدول هذه الكتلة قد يحقق لنا منافع اقتصادية وفى نفس الوقت يعطينا فرصة للحركة قد تغير من خطة الأعداء وتجبرهم على تغير موقفهم .

وأعددنا دارسة لكل مشروعاتنا وأرسلناها إلى مختلف الدول بما فيها الاتحاد السوفيتى وسافرت أول بعثة اقتصادية مصرية إلى أوروبا الشرقية يرأسها الأمين الاى المهندس حسن رجب الذى أصبح فيما بعد سفيرا لمصر فى الصين . .
وافتتحت بنفسى معرض ألمانيا الديمقراطية التى أبدت استعدادها لتوريد مصانع كاملة لمصر . . ورصدت دخل المعرض كله للجمعيات الخيرية المصرية . . إننى لم أكن أرى إلا مصلحة مصر . .
وفى سبيل هذه المصلحة ضحيت بكيانى وأحلامى وأعصابى . .

إن شعار « مصر فوق الجميع » كان شعاراحقيقيا فى عهدى . . ولكن . . الشعار أنقلب تماما فى أيام أخرى تلت اختفائى من على المسرح .

الفصل الرابع عشر

أيـــام المعتقـــل

- رفضت أن أهرب خارج مصر بحجة وجود خطر على حياتي .
- تمنيت أن يعاملوني لحظة التخلص مني كما عاملت الملك الفاسد فاروق .
- الذين قاموا بالثورة طحنتهم والذين نافقوها رفعتهم .
- شطبوا اسمي من كتب التاريخ فلم يصدق أطفالي انني كنت رئيسا لمصر .
- ابني الأكبر مات بعد الاعتقال والاوسط مات مقتولا فى المانيا والثالث طردوه من عمله بقرار جمهورى .
- ضربت وأهنت وتعرضت للموت فى حادث اختطافى عام ١٩٥٦ .
- سمعت خبر وفاتي باذني فى اذاعات العالم نقلا عن مصادر مطلعة فى القاهرة .

ثلاثون عاما مرت عل هذه الذكريات التى لا أعرف بماذا أصفها ؟
هل هى ذكريات سيئة ؟
هل هى ذكريات تنطبق عليها القاعدة القرآنية الشريفة « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » ؟
لا أعرف بالضبط ؟
كل ما أعرفه هو أننى أعطيت لمصر كل ما كنت أملك من حب وإخلاص ووفاء .
وكل ما أعرفه هو أننى فعلت المستحيل لينصلح حالها ، ولترفرف الديمقراطية إلى جانب علمها .
وإذا كنت قد أخطأت فبحسن نية .. وجل من لايخطىء .
وإذا كنت قد أخطأت ، فأن حظأى لم يكن سوى قطرة ماء اذا ما قورن بمحيط العذاب الذى غرقت فيه ، من يوم أن خرجت من قصر عابدين فى ١٤ نوفمبر ١٩٥٤ حتى الآن .
فى ذلك اليوم أنهى عبد الناصر أزمة مارس ، التى أشعلها بينى وبينه ليستولى على السلطة بكلمة نقلها لى عبد الحكيم عامر ، الذى قال .
« إن مجلس الثورة قرر إعفاءكم من منصب رئيس الجمهورية » .
وخرجت من مكتبى فى هدوء وصمت ، حاملا المصحف ، مع حسن إبراهيم فى سيارة وحيدة إلى معتقل المرج .. إلى فيلا زينب الوكيل ، حرم النحاس باشا التى أعدتها لتكون استراحة ريفية لها ..
وفى ذلك اليوم أيضا قال لى عبد الحكيم عامر :
- إن إقامتك فى فيلا زينب الوكيل لن تزيد عن بضعة أيام ، تعود بعدها إلى بيتك .
ولكنى من يوم دخلت هذه الفيلا ، وحتى أكتوبر ١٩٨٣ ، لم أتركها .. حوالى ٢٩ سنة .. وذلك عندما طلب ورثة زينب الوكيل أن تعود إليهم .. ورفعوا الأمر للقضاء ، واستجاب القضاء لهم .. ونقلت من الفيلا التى عشت فيها كل هذه الأعوام ، وحفظت كل ركن وكل شبر فيها ، إلى شقة أمر الرئيس حسنى مبارك بتخصيصها لى .

وقد كنت أريد أن أموت فى هذه الفيلا .. فقد كان من الصعب على أن أموت فى مكان اخر غيرها . بعد كل هذه السنوات من العشرة ..

ولكن ليس لى نصيب فى تحقيق هذه الأمنية . . وبذلك لا أكون قد اخترت المكان الذى أعيش فيه ولا المكان الذى أموت فيه .

إن الزمن يجبر الإنسان على الألفة والتعايش مع ما يحب ومع ما يكره . . ومع ما يريده وما لا يريده . . حتى مع السجن ومع المعتقل . . وقد كانت بيننا ، أنا وتلك الفيلا المهجورة البعيدة عن قلب القاهرة بأكثر من ٢٠ كيلو مترا ، ألفة وعشرة وارتباط . . وكان بيننا أيضاً إحساس مشترك بفقدان الحرية . . وهذا طبيعى . . فأوجاع السجان النفسية لاتقل عن أوجاع السجين النفسية . . والسجن نفسه يحزن على قدره الذى جعله يلعب دورا لايرضاه . . ولابد أن فيلا المرج أحست بهذه الأحاسيس ، فقد قدر لها أن تتحول من استراحة إلى معتقل . . وتتحول من تحفة إلى خرابة .

فيوم دخلتها أول مرة . كانت عروساً ، شابة حلوة ، نظيفة ، لامعة ، منسقة ، مثمرة ، نضرة ، ورائعة . . ويوم تركتها ، آخر مرة ، كانت خرابة . . ولم أكن أنا السبب . . وإنما الذين حولوها إلى سجن .

الأعشاب الشيطانية حاصرتها . . الصدا أكل بوابتها الحديدية الضخمة . . الاهمال أحرق أشجارها المثمرة . . وكتائب الحراسة حولت النخيل إلى وقود يتدفئون به فى الشتاء . . وحولت جراج الفيلا إلى مأوى لبعض أفرادها .

وقد حولت أنا الدور الأرضى من الفيلا إلى مخزن كبير ، أضع فيه مئات الكتب التى جمعتها وقرأتها طوال سنوات إقامتى بها . . كتب فى كل فروع المعرفة وبلغات مختلفة . . فى الأدب ، والطب ، واللغات ، والتاريخ ، واليوجا ، والفلك ، والاقتصاد . . وفى ذلك المخزن وضعت ما تبقى لى من أوراق خاصة ، وصور شخصية ، وخطابات من وإلى أسرتى ومعارفى وأصدقائى وفى ذلك المخزن الذى أغلق وأهمل فى السنوات الأخيرة عاشت مع الكتب والأوراق الحشرات والفئران والثعابين وكميات لاوزن لها من الأتربة .

أما الدور الأول من الفيلا فكان عبارة عن صالة بها ترابيزة سفرة قديمة ، تؤدى إلى حجرة صغيرة ، فقيرة الأثاث ، تعيش فيها خادمتى المخلصة فتحية ، وامرأة عجوز أخرى تشاركها أعباء الخدمة . . وتؤدى الصالة الى « فرندة » بها « عشة » فراخ وتمثال من البرونز لسعد زغلول . . وتؤدى الصالة أيضا إلى حجرة نومى ، وهى فى نفس الوقت حجرة معيشتى . . وهى الحجرة التى عشت فيها كل هذه

السنوات الطويلة . . فى هذه الحجرة سرير قديم من الخشب أنام عليه ، وأضع عليه الكتب والمجلات التى أقرأها ، وأضع عليه عصا من البوص اللين ، أؤدب بها برقة قططى وكلابى . . بجانب السرير ، منضدة متوسطة من الخشب ، تمتلىء فى فوضى وأرتباك بالأدوية ومجموعة البايب وكوب من الماء وأوراق مبعثرة ، وعليها مفرش من المشمع الذى يستخدم عادة فى المطابخ ، وأمامها ثلاجة صغيرة جدا ، وبالقرب منها كنبة عليها كتب قديمة ، ينام عليها الكلاب أحيانا . . وبالقرب من الكنبة صناديق من الكرتون تمتلىء بالأدوية والصور الشخصية والذكريات القديمة . . وعلى الجدران صور شخصية ، صورة للكعبة المشرفة وبعض آيات من القرآن الكريم وأحاديث للنبى محمد صلى الله عليه وسلم ولعلى بن أبى طالب (رضى الله عنه) أغلبها يؤكد على معنى واحد هو أن النفع بيد الله والضرر بيد الله ، لابيد البشر ، ولو اجتمعت الأمة على ذلك . . حجرة متواضعة . . شديدة التواضع . .

عشت فيها وأنا أحمل لقب أول رئيس جمهورية لمصر .

إن ما حدث لتلك الفيلا المظلومة ، حدث لى . .

وفى نفس اليوم . .

يوم ١٤ نوفمبر ١٩٥٤ .

لم يكن هذا اليوم يوما عاديا بالنسبة لى . .

ففى الصباح ، عندما تحركت من بيتى ، فى شارع سعيد بحلمية الزيتون ، متجها إلى قصر عابدين ، لاحظت تراخيا من ضباط الحرس الجمهورى والبوليس الحربى . . ولم يؤدوا لى التحية العسكرية .

كنت أشعر أننى أقف وحيدا وسط حصار عبد الناصر ورجاله .

فقد أجبر خالد محيى الدين على الرحيل إلى سويسرا . . وطرد يوسف صديق من المجلس أيضا . . وهرب قائد حرسى محمد رياض الى السعودية فى اللحظات الأخيرة قبل أن يقبض عليه بتهمة تدبير انقلاب ضد عبد الناصر مع الأخوان المسلمين .

وكانت المرة الأخيرة التى رأيت فيها محمد رياض ، فى أكتوبر ١٩٥٤ ، وتمت المقابلة بصورة سرية ، فى منزل أحد أقربائى ، بالزيتون ، وبعد أن غافلت

الحراس الذين لم يعينوا لحمايتى وإنما لمراقبتى . . وفى - تلك المقابلة قال لى محمد رياض :

إن هناك خطة عربية وضعت لتهريبى خارج مصر ، بعد أن تأكدنا أنهم سيعزلونك .

قلت بإصرار :

- لا

قال :

- لكن هناك خطرا على حياتك .

قلت :

- لا . . بل إننى أنصحك بالبقاء فى مصر لتواجه الموقف بشجاعة .

لكنه رفض ، وهرب فعلا إلى السعودية ، ومن يومها لم التق به الا بعد أن رفعت القيود عنى تماما عام ١٩٧١ .

ومن يوم أن قابلت محمد رياض سرا ، وعرفت منه هذه الأخبار ، كنت أدرك ان ساعة القبض على آتية لاريب فيها . . وكنت أنتظرها بين لحظة وأخرى . . فلم أكن أملك سوى الانتظار .

ولذلك أحسست ، من تراخى البوليس الحربى ، أن هذا اليوم لن يمر على خير . . ورغم ذلك لم أغير طريقى ، واتجهت إلى قصر عابدين . . ولكن . . ما أن نزلت من سيارتى ، ودخلت القصر حتى فوجئت بصاغ من البوليس الحربى اسمه حسين عرفة ، وكان ضابطا فى الحرس الملكى يوم خروج الملك فاروق ، ثم نقل إلى البوليس الحربى لأنه يمت بصلة نسب إلى البكباشى أحمد أنور قائد البوليس الحربى فى ذلك الوقت . . فوجئت به ومعه ضابطان وعشرة جنود من البوليس الحربى أيضا ، يحيطون بى . . يحاصروننى ، وهم يحملون مدافعهم الرشاشة . . ووجدت نفسى أصرخ فيهم :

- أبتعدوا . . أبتعدوا عنى وإلا جاء الحرس الجمهورى وتحول الموقف إلى مذبحة .

وفى الحقيقة لم أكن متأكدا أن الحرس الجمهورى سيقاتل إلى جانبى ، وسيتدخل لحمايتى والدفاع عنى ، بعد أن عين عبد الحكيم عامر

اللواء محمد عبد المنعم صالح كبيرا للياوران ، وقام اللواء صالح بتغيير طاقم الحرس ، واختار ضباط تابعين له ، وغير مستعدين على تكسير أوامره . . لكنى رغم ذلك قلت هذا الكلام . . ويبدو أنهم لم يتوقعوا ذلك منى ، فابتعدوا عنى فعلا .
ودخلت المكتب . .

وجاء عبد الحكيم عامر وحسن إبراهيم . . وأبلغنى عامر بقرار الإعفاء . . وصحبت حسن إبراهيم إلى فيلا زينب الوكيل .
وقبل أن نصل إلى الفيلا ، كان قد سبقنا إليها أحمد أنور قائد البوليس الحربى ، الذى زرع عشرين نقطة قوية من نقاط الحراسة ، حول الأسوار . . وفوق السطح . . وفى المداخل . . وكان تسليحها قويا . . مدافع رشاشة ، وقنابل يدوية ، ومدافع صغيرة ، وكان أحمد أنور يتصرف فى تلك الساعة وكأنه يقود معركة حربية شرسة .
وعندما دخلت حديقة الفيلا ، جلست على أقرب كرسى ، وأشعلت البايب ، ورحت أتأمل ما يجرى حولى ، وما جرى من قبل فى هدوء . . هل كانت لحظات اندهاش . . فعلا .
هل كانت لحظات ضيق وتوتر وقلق . . أكيد .
هل كانت لحظات مراجعة سريعة لكل ماحدث . . صحيح .
فكل ما حولى كان يدفعنى لذلك . .

فقد سارع ضباط وجنود البوليس الحربى بقطف ثمار البرتقال واليوسفى من الحديقة . . وحملوا من داخل الفيلا كل ما كان بها من أثاث ، وسجاجيد ، وستائر ، ولوحات ، وتحف . . وتركوها عارية الأرض والجدران تماما . . وحملت سياراتهم المطابخ والثلاجات وحلل الطهى . . وبقى المكان على ما هو عليه إلى الآن .
وكما صادروا أشياء لايملكونها فى بيت لاشأن لهم به ، صادروا أوراقى ، وكتبى ، وتحفى ، وتذكاراتى ، ونياشينى وقلاداتى ، وسيوفى ونقودى ، وكل شىء يخصنى ، كان فى بيتى .

وكل ما سمحوا به ، زوجتي وأولادى ، وثلاث حقائب والشغالة .
ياسبحان الله . .
ماذا فعلت ليفعلوا بى كل هذا !!
إننى يوم ودعت الملك ، الذى انتهك الحرمات ، وأحل الفساد محل النقاء .
وجلب الخراب والهزيمة على البلاد ، لم أفعل ذلك ، على العكس . .
كنت حريصا على أن يكون وداعه وداعا رسميا ، مشمولا بكل مظاهر التكريم والرعاية والاحترام . . سمحت له بأن يأخذ أشياءه الخاصة والشخصية . .
وتركت السفراء والوزراء والحاشية يودعونه . . وأمرت أن تطلق المدفعية . . ٢١ طلقة ،وأن تعزف الموسيقى نوبة مساء والعلم ينزل من على سارية ، ليحتفظ به الملك الذى نزل فى غاية الوقار الى اليخت المحروسة .
حافظت على الأصول والتقاليد . .

لكن . . لم يحافظ عبد الناصر لا على الأصول ولا على التقاليد ،أنا الذى فعلت كل هذا من أجله ومن أجل مصر ومن أجل الثورة . . تعاملوا معى كأننى لص . . أو مجرم . . أو شرير . . لم يتصل بى عبد الناصر . . لم يقل لى كلمة واحدة . . ولم يشرحوا لى ما حدث . . ولم يحترموا سنى ولارتبتى ولا مركزى ولا دورى . . والقوا بى فى النهاية فى أيدى لا ترحم وقلوب لا تحس ، وبشر تتعفف الحيوانات من الأنتساب لهم .

ما أقسى المقارنة بينى وبين فاروق عند لحظات النهاية والوداع . . ودعناه بالاحترام وودعونى بالإهانه . . ودعناه بالسلام الملكى والموسيقى . . وودعونى بالصمت والاعتقال . . ودعناه بالمصافحة وودعونى بإعطاء ظهورهم لى .

أن أصعب شيء على المرء أن يكتب أو أن يتحدث عن آلامه الخاصة . . لكن هنا أنا لا أكتب عن قضية خاصة وإنما أكتب عن أسلوب الثورة فى التعامل مع رجالها . . وفى التعامل مع الناس الآخرين . . أكتب عن قضية ضرب الحريات وإهدار الحقوق وتحطيم كرامة الإنسان المصرى ، فإذا كان هذا حدث معى ، وحدث أيضا مع العديد من رجال الثورة ، فما الذى حدث مع الآخرين ؟!

لقد قلبت الثورة كل معايير التعامل مع البشر . .
الذين قاموا بها طحنتهم . .
والذين نافقوها رفعتهم . .
وتعجبت . .

تعجبت أن تترك الثورة الحرية الشخصية للاقطاعيين الذين مصوا دماء الفلاحين ، وأن تترك حرية اختيار مكان الاقامة للرأسماليين الذين تحالفوا مع الانجليز ، وأن تفتح ذراعيها للاجئين السياسيين . . وتلقى برئيس جمهوريتها المعزول فى منزل عار من الأثاث والرحمة . . خال من سبل الاقامة وسبل الكرامة . .

وتقبلت ما حدث لى فى صمت وهدوء . .

رفضت أن أشكو من المنزل المهجور ، والحياة اليومية الصعبة ، والحصار اللاإنسانى الذى وجدت نفسى فيه ، حتى لاتتحول هذه الشكوى إلى دعاية مرضية ، رخيصة ، على يد وزير الإرشاد الموتور ، صلاح سالم .

وتحملت كل هذا فى صبر وقوة . .

وتحملت زوجتى كل هذا أيضا . . والأولاد .

وكانت زوجتى تقول لى دائما ، كلما ضججت مما حولى :

ـ تصور أن حريقا شب فى منزلنا والتهم كل شيء . . العوض على الله .

وقبلت الأمر الواقع وبدأت رحلة التكيف مع الوضع الجديد . .

كنت أقضى يومى فى ممارسة بعض التمارين الرياضية . . وفى قراءة الصحف . . وفى سماع الأذاعات . . وفى تسجيل ملاحظاتى حول الأحداث التى تجرى فى البلاد . . وبعد ذلك فى تربية القطط والكلاب . .

لكنى . .

ما كنت أرصده وأسمعه وأسجله من أخبار كان لايسرنى . . كان يغم قلبى ويكتم صدرى ويشعرنى باليأس والألم والضيق .

فبعد حادث المنشية بدأت مهزلة اعتقال ومحاكمة الأخوان المسلمين . .

بدأت هذه المحاكمات قبل اعتقالى بيوم وانتهت بعد اعتقالى بيوم ، ورأسها جمال سالم ، وتمت فى جو من الإرهاب والضغط ، والسخرية بكل شيء . . بالأنسان . . وبالمبدأ . . وبالقيم . . وبكتاب الله أيضا . . إلى حد أن جمال سالم طلب من بعض أفراد الإخوان المتهمين أمامه أن يقرأوا القرآن بالمقلوب . .

كانت مشاعرى معهم .. مع الإخوان .. رغم أنهم تخلوا عنى وعن الديمقراطية ورفضوا أن يقفوا فى وجه عبد الناصر إبان أزمة مارس ، بل أنهم وقفوا معه ، وساندوه ، بعد أن اعتقدوا ، خطأ ، أنهم سيصبحون حزب الثورة
وأنهم سيضحكون على عبد الناصر ويطوونه تحتهم .. فإذا بعبد الناصر يستغلهم فى ضربى ، فى ضرب الديمقراطية ، وفى تحقيق شعبية له ، بعد حادث المنشية .. إن الإخوان لم يدركوا حقيقة أولية ، هى أنه إذا ما خرج الجيش من ثكناته فإنه حتما سيطيح بكل القوى السياسية ، المدنية ، ليصبح هو القوة الوحيدة فى البلد .. وأنه لايفرق فى هذه الحالة بين وفدى وسعدى ، ولابين إخوانى وشيوعى .. وأن كل قوة سياسية مدنية عليها أن تلعب دور القيادة العسكرية الديكتاتورية ثم يقضى عليها .. لكن .. لا الاخوان عرفوا هذا الدرس ، ولاغيرهم استوعبه .. ودفع الجميع الثمن .
ودفعته مصر أيضاً ..
دفعته من حريتها وكرامتها ودماء أبنائها ..
فالسلطة العسكرية ، أوالديكتاتورية العسكرية لاتطيق تنظيما آخر ، ولاكلمة واحدة ، ولانفسا ولاحركة ، ولاتتسع الأرض لها ولا أحد غيرها .
وكما قلت من قبل
كان حزنى شديدا على عبد القادر عودة الذى صعد درجات المشنقة شجاعا ، وتذكرت يوم استدعيته قبل ذلك بشهور فى شرفة القصر الجمهورى بعابدين ليطل معى على أنصاره فى الميدان ، ويطلب منهم الانصراف بهدوء بعد أن قلت لهم أن عودتى هى عودة الحياة البرلمانية وإن المسئو لين عن جرحاهم سوف يحاسبون .
والتحول من العمل الجماهيرى إلى الإرهاب أعطى دلالة بالغة على فقدان الثقة فى الشعب وهو ما سقطت فيه قيادات الإخوان المسلمين .
ولم يدفع الإخوان الثمن بمفردهم ..
دفعه شباب مصر ، ورجالها ، ودفعه أيضا أبنائى ..
فالأرهاب يولد إرهابا .. والدم يفجر الدم .. والقسوة تعشق القسوة ..
والديكتاتورية العسكرية لاتحكم الا بدولة المخابرات ..
لقد أسس زكريا محيى الدين دولة المخابرات .. وكان يطلق عليه « بيرية » .. أو الرجل الغامض .. ثم جاء تلاميذه ليتفوقوا عليه .. وليثبتوا للنظام أنهم معه ،

بعقولهم وقلوبهم وعضلاتهم وكلابهم وبشراستهم وبغلاظة قلوبهم . . فثمن البقاء في السلطة كان دائما دماء أبناء مصر ودماء خيرة شبابها . .
وكان ابنى فاروق أحد هؤلاء الشباب . .
تعذب فاروق وهو صبى صغير نفسيا ، وتعذب جسمانيا وهو شاب ورجل . .
فعندما جئنا إلى معتقل المرج ، جاء إلى فاروق ، ليسألنى فى اهتمام شديد :
ـ أبى . . هل صحيح أنك كنت رئيسا للجمهورية ؟
وتعجبت للسؤال . . لكنى أبتسمت لفاروق ، وداعبته ، وقلت له :
ـ نعم يابنى . . لكن ما الذى جعلك تسأل هذا السؤال . . هذا تاريخ مضى وأنقضى .
ولمحت دموعا حائرة فى عينى الصبى ، وهو يقدم لى كتابا فى المطالعة ، جاءت فيه هذه العبارة :

« وجمال عبد الناصر هو أول رئيس لجمهورية مصر » .
رفعت المطابع أسمى من كافة الكتب . . شطبوا اسمى من التاريخ . . وزوروا التاريخ . . بل وحاولوا أن يتعاملوا معى كأننى لم أوجد ولم أولد وكأننى كذبة أو خرافة أو إشاعة . .
هكذا يزيف التاريخ ببساطة . . وهكذا يتعلم الأولاد الكذب . . لكننى على كل حال لست أول من فعلوا به ذلك . . فقد سبقنى ، على الأقل ، سعد زغلول الذى وصفوه بأنه قفز على ثورة ١٩١٩ ونصب نفسه زعيما عليها دون وجه حق . . وفعلوا نفس الشىء بمصطفى النحاس ، الذى عندما مات ، قبضوا على كل من مشى فى جنازته ، وظل محرما على المصريين أن يذكروه أو يتحدثوا عنه .
إلى هذا الحد تصور عبد الناصر أنه يمكن أن يعيد صياغة وكتابة التاريخ حسب مايريد .
لكن . .
هل يمكن أن يغير التزييف حقيقة التاريخ .
لا أعتقد .
وقلت لصغيرى :
ـ لا تبتئس يابنى هذه إرادة الحاكم وليست ارادة الشعب .

ولا أعرف ما إذا كان ابنى قد فهم هذا الكلام أم لا . . ولا أعرف ما إذا كان قد صدقنى ، ساعتها ، أم صدق كتبه المدرسية . . لكننى أعرف أننى حزنت جدا لان ابنى قد يعتبرنى كاذبا ، وهو أشق ما يمكن أن يتحمل أب من ابنه . . وحزنت جدا لانهم أصدروا حكم الإعدام على اسمى وأنا لا أزال على قيد الحياة . .
وأعرف أن فاروقا ، عرف الحقيقة كاملة عندما كبر . . بل أنه ذاق العذاب على يد زبانية عبد الناصر الذين تسببوا فى تحطيمة وانهياره وموته فى النهاية فعندما كبر فاروق شرب من نفس الكأس الذى شربت منه . . فقد استفزه أحد المخبرين الذين كانوا يتابعونه ويسيرون وراءه . .
قال له :
ـ ماذا فعل أبوك للثورة . . لاشىء . . إنه لم يكن أكثر من خيال مآتة . . ديكور . . واجهة . . لا أكثر ولا أقل .
فلم يتحمل فاروق هذا الكلام علىّ ، وضربه . .
ويومها لم يعد فاروق إلى البيت . .
ولم ينم فيه . .

قبض عليه . . واتهموه بالإعتداء على النظام وبسبه ، ودخل ليمان طره مع المعتقلين السياسين ، وبقى هناك خمسة شهور ونصف . . خرج بعدها محطما ومنهارا ومريضا بالقلب . . وبعد فترة قليلة مات . . مات من القسوة والغم والقرف .
كان ذلك عام ١٩٦٩ . .
وقبل ذلك بعام واحد ، قتل ابنى الثانى . . « على » . . فى ألمانيا الغربية .

كان على يدرس فى ألمانيا ، وكان زعيما طلابيا له نشاط واسع ضد اليهود هناك . . كان يقيم المهرجانات التى يدافع فيها عن مصر وعن الثورة وعن حق الفلسطينين . . ولم يعجب هذا بالطبع ، رجال المخابرات المصرية ، الذين رأوا فى نشاطه إحياء للكلام عن أبيه . . عنى . .

وفى ليلة ما كان على يوصل زميلا له بعد أن انتهيا من استذكار دروسهما . . فإذا بعربة جيب بها ثلاثة رجال وامرأة تهجم عليه وتحاول قتله . . وعندما هرب . . جرت وراءة السيارة ، وحشرته بينها وبين الحائط ، ونزل الرجال الثلاث وأخذوا يضربونه حتى خارت قواه ونزف حتى الموت .
وتمدد على غارقا فى دمائه على الأرض ، دون أن يتقدم أحد لإنقاذه .
ونقل جثمانه من ألمانيا إلى مصر ، ودفن ، دون أن يسمح لى بأستقبال نعشه ، أو

قراءة الفاتحة على قبره .
أما ابنى الثالث يوسف ، فلم يكن رغم بعده عن النشاط العام ، أكثر حظا من أخويه . . فبعد أن تخرج من معهد العلوم اللاسلكية أشتغل فى إحدى شركات الدولة ، ولكنهم لم يتركوه فى حاله . . افتعل أحد أقارب شمس بدران مشاجرة معه ، انتهت بإصدار قرار جمهورى برفته والتخلص منه . .

ولم يجد يوسف ما يفعل سوى أن يعمل على سيارة أجرة فى الضواحى . . وهو الآن أسعد حالا لأنه يعمل فى شركة المقاولون العرب سائقا فى الصباح ، وعلى تاكسى أشتراه بالتقسيط فى المساء .
لقد تعذب أولادى كما تعذبت أنا . .
تعذبنا جميعاً منذ دخلنا معتقل المرج . .

كان ممنوعا علينا أن نستقبل أحدا . . وبعد سنوات طويلة سمحوا لنا بذلك ، لكن على شرط أن يجلس معنا ضابطا ليسجل كل ما يقال . . وكانت إحدى نقاط الحراسة تقع على السطح ، وكان لابد للجنود والضباط ليصلوا إليها أن يمروا بحجرة نومى . .

وكان من الطبيعى ومن المعتاد أن يفزع الجنود أفراد أسرتى بإطلاق الرصاص فى الهواء ، فى منتصف الليل ، وفى الفجر . .
وفى أى وقت يتصورون أنه مناسب لراحتنا . .
وكانوا يؤخرون عربة نقل الأولاد إلى المدارس ، فيصلون إليها متأخرين ، ولاتصل العربة إليهم فى المدرسة الا بعد مدة طويلة من انصراف كل من فى المدرسة ، فيعودون إلى المنزل مرهقين ، غير قادرين على المذاكرة . . وكل ما يفعلونه هو أن يأكلواويناموا .

وكان على كل من فى البيت الا يخرج منه من الغروب حتى الشروق . .
وكان علينا أن نغلق النوافذ فى عز الصيف . . تجنبا للصداع الذى يسببه عمدا الجنود والضباط ، وهربا من جحافل الناموس التى تملأ المنطقة . .
كانت نسمة الهواء ليلا فى الصيف محرمة علينا .

ولم تفلح الشكوى التى اضطررت اليها بسبب الأولاد ، إلى عبد الحكيم عامر ، وإلى غيره . .
وقد كتبت لعبد الحكيم عامر عشرات الخطابات بلا جدوى . .

ـ انهم قرروا سفرنا الى نجع حمادى . . وسنقوم الليلة الساعة ٦,٣٠ مساء بقطار مخصوص .

وركبنا عربة مخصوصة لا قطارا مخصوص .

ودخلت ديوانا ، أغلقوه على من الخارج ، وأوقفوا على بابه جنود البوليس الحربى . . ولم أستطع ليلتها أن أنام من شدة الزكام والصداع ومن قلة الطعام . .

وكنت أرى على رصيف كل محطة يمر عليها القطار عددا كبيرا من جنود البوليس يخلونها من الناس . .

وبعد ٤٨ ساعة وصلت نجع حمادى . . وصلنا عند شروق الشمس تقريبا . . واتجهنا الى استراحة الرى . . وكانت استراحة معقولة . . من دورين . . كانت اقامتى فيها بالدور الاعلى . . وكل نصف ساعة كانوا يطمئنون على وجودى رغم صعوبة الهرب من المكان . . وكنت لا أزال مضربا عن الطعام لاظهار سوء المعاملة .

واستمر اضرابى التام عن كل شىء حوالى ٤٤ ساعة من الساعة ١,٢٠ صباح الخميس الى ٩,٢٥ مساء الجمعة .

وظهر الجمعة قالو لى :

ـ ابنك فاروق على التليفون .

وكلمت فاروق وطمأنته وكان الى جوارى الملازم أول رفيق بدر أبو على . . وانتهت المكالمة لنجلس جميعا معا ونسمع الاخبار . . كانت الاخبار سيئة للغاية . . سيناء ضاعت . . وقطاع غزة أيضا . . والطائرات تدمر المنشآت والأرواح المصرية . . وانتهى اليوم بأن تناولت كوبًا من عصير الليمون .

وبعد ٤٨ ساعة قضيتها فى هذه الاستراحة فوجئت بحضور ضابطين من ضباط البوليس الحربى هما جمال القاضى ومحمد عبدالرحمن نصير . . جاءا لينقلانى الى مكان آخر . .

لم أعرف الى أين . . ولم يقولا لى . .

وعندما سألتهما . . كان الرد بشعا . . اعتذر عن ذكره . . وأشعر بالقىء كلما تذكرته . . كان الجواب سيلا من الشتائم ، حاولت وقفه بصرخة احتجاج ، فإذا بضابط منهما يدفع يده فى صدرى ويلكزنى فيه . . ودارت بى الدنيا . . وهانت على الحياة . . وهممت بالهجوم عليه ، لكن أيدى الجنود حالت بينى وبينه .

وساعتها أدركت ماذا فعلت حركة يوليو فى مصر . . كيف ازالت الاحترام بدلا من الفوارق بين الطبقات . . كيف أطاحت بالكرامة فى الوقت الذى كانت تقول فيه ارفع راسك يا أخى . .

أى تغيير وقع فى مصر . .

أى انهيار حدث فى تقاليد الجيش . .

كيف تتجرأ رتبة صغيرة على سب رتبة أكبر منها وضربها إذا استدعى الأمر . .

وعدت للاضراب عن الطعام . .

وانزويت اتابع اخبار العدوان . . وأسجلها . .

وهذا بعض مما سجلته فى تلك الأيام . .

السبت ١٩٥٦/١١/٣ :

أنا متعب . . وقست درجة الحرارة فكانت ٣٧,٥ ولكنى لن استسلم للراحة اذ كيف يستريح من يرى بلاده تنتحر وتدمر ويغزوها اليهود ويسمع ان الحاكم العام قد وقع وثيقة الاستسلام وأخذ أسيرا (محمد فؤاد الدجوى) يسمع ان جنودنا ينسحبون بلا حماية من الجو .

وجمال عبدالناصر مازال يعتقد أنه سيد مصر والعروبة والاسلام .

تابع ١٩٥٦/١١/٣ :

اعلن أمس جمال عبدالناصر نفسه قائدا عسكريا عاما . فهو الحاكم العسكرى وهو رئيس الجمهورية وهو كل شىء .

الثلاثاء ١٩٥٦/١١/١٣ :

صحيت بعد طلوع الشمس وصليت كالمعتاد وتلوت ما تيسر من القرآن .

الاخبار أهمها ان همرشلد سيقوم من نيويورك ليصل مصر يوم الخميس بعد أن قبلت مصر أمس فى مجلس الوزراء اقامة القوات الدولية البوليسية على أراضيها .

الأربعاء ١٩٥٦/١١/١٤ :

قال راديو لندن إن خسائر مصر فى بورسعيد هى ١٠٠ قتيل و٤٤٠ جريح .

وقال ان ديون مصر الاقتصادية وصلت فى اسابيع الى ٤٠٠ مليون دولار .

الجمعة ١٩٥٦/١١/١٦ :

فى الثامنة والنصف مساء حضر الاستاذ حسن محمد من مصر . . الاخبار تقول ان

همرشلد قابل عبدالناصر وبولجانين ارسل الى انجلترا وفرنسا واسرائيل يحذرها من العواقب الوخيمة التى تنتظر اسرائيل اذا ما قامت بعمليات حربية بعد اليوم وكذلك ينذر الجميع بالجلاء من الاراضى المصرية ويطالب لمصر بتعويضات من لندن .

الاحد ١٨/١١/١٩٥٦ :

أشعر بأننى معرض للاعتداء على بالقتل فى أى وقت فأنا محظور بمعنى الكلمة وهكذا يعاملوننى . . وفى هذا اليوم كتبت خطابات الى احمد انور قائد البوليس الحربى عن المتاعب هنا وعن عدم الاطمئنان على أولادى حتى الآن . . والى على نجيب ومعه شيك رقم ٧٠٥٨٤٥ بتاريخ ١/١٢/٥٦ بمبلغ ١٦٠ جنيها . . والى زوجتى وأولادى . . وخطاب لعبدالحكيم عامر ومعه شيك رقم ٧٠٥٨٤٧ بتاريخ ١٨/١١/٥٦ مساهمة فى المجهود الحربى .

وبعد أيام حضر حسين عرفه ضابط البوليس الحربى وقائد المباحث العسكرية الجنائية ، يعتذر لى عما بدر من الضباط ويبلغنى أننا سننتقل الى جهة أخرى بعد تغيير الضابطين جمال القاضى وعبدالرحمن نصير .

وانتقلنا الى بيت محامى فى طما ، عرفت أنه زوج شقيقة أحمد أنور وعديل حسين عرفه .

وبقيت هناك فى احدى الغرف ٥٩ يوما كاملا ، فى حجرة رطبة ، لا تدخلها الشمس ، وعند النوم ، أنام ومعى حراسة مشددة داخل الحجرة . . حتى حرية النوم بمفردى فقدتها .

وكما سافرت بلا مقدمات . . عدت إلى المرج بلا مقدمات أيضا . . جاء حسين عرفه وصحبنى الى القاهرة وفى الطريق عرفت منه أن اقامتى كانت سرية حتى على رجال وزارة الداخلية . . وعلمت منه أن صوت الدعاء الذى كان يتسرب الى غرفتى كان صادرا من والدة أحمد انور التى كانت تقيم هناك .

وحتى الآن لم أفهم :

ـ لماذا تصرف عبدالناصر معى على هذا النحو ؟

ولم أجد اجابة قاطعة . .

قيل أن أحد أهداف العدوان الثلاثى كانت اعادتى للحكم . . وقيل أن المخابرات البريطانية تسعى لمعرفة مكانى . . ولكن . . لا اصدق هذا الكلام . .

التعليل الوحيد الذى اتصور انه مناسب هو خوف عبدالناصر من ان ينقلب الناس ضده فى تلك الظروف الحرجة ويطالبوا بعودتى .. لكن ..

ـ لماذا هذه المعاملة السخيفة ؟

لا اعرف لا بالضبط ولا بالتعليل ..

وقد عرفت ، فيما بعد ، من بعض رجال عبدالناصر الذين جاءوا يطلبون منى ان اسامحهم على ما فعلوه بى ، ان تعليمات صدرت أثناء خطفى بقتلى واخفاء جثتى تماما باذابتها فى حامض مركز .. ولكن ضمير البعض استيقظ فرفض تنفيذ التعليمات ، ودفع ثمن ذلك من مستقبله ، كما أن احساس عبدالناصر بالخطر قد زال بعد تدخل الروس والأمريكان لاجلاء القوات الاسرائيلية .

واذا كان عبدالناصر طلب اذابة جثتى فى حامض شرس .. فأنا طلبت منه أن أتطوع كجندى عادى فى جيش مصر ، فى تلك الحرب التى اوقعنا فيها ..

وكتبت له الخطاب التالى من مكانى المجهول الذى خطفت أليه .. والتى سميته بلدة « س » :

فى يوم الاثنين ، ربيع الثانى ١٣٧٦

الموافق ٥ فبراير ١٩٥٦

إلى السيد الرئيس جمال عبد الناصر

السلام عليكم ورحمة الله ـ وبعد فقد يظن غيركم أنى هازل أو محاول الدعاية لنفسى أو غير ذلك ، ولكنكم تعرفون أخلاقى ومن ميزاتكم الفريدة القدرة على معرفة الرجال كما ان اى رجل شجاع او اى وطنى حميم يستطيع بسهولة ان يؤمن بصدق ما اكتبه اليكم الآن :

أريد ان نضرب للمواطنين مثلا جديدا عل إنكار الذات والتضحية بكل شىء فى سبيل البلاد ، أريد أن نقف رجلا واحدا ندافع عن الوطن العزيز فى هذه الساعة الحرجة .

أريد منك ان تسمح لى بأعز امنية وهى المشاركة فى أقدس واجب وأشرفه وهو الدفاع عن مصر ، فاسمح لى بالتطوع جنديا عاديا فى جبهة القتال باسم مستعار وتحت أية رقابة شئت ، دون ان يعلم احد بذلك غير المختصين ، وإنى اعدك بأثمن ما أملك ، أعدك بشرفى أن أعود الى معتقلى اذا بقيت حيا بعد انتهاء القتال . وبذلك تغسلون ما لحق بى من الآلام .

● صورة الخطاب بالوثائق ص ٣٧٩ .

كما تسعدون العدد الكبير من الضباط والجنود المعينين لحراستى والمحرومون مثلى من شرف الاشتراك فى القتال وتوفرون مبلغا كبيرا ينفق على هذه الحراسة . وانا لا أريد سوى أن أختم حياتى ختاما شريفا .
ولو خامركم الشك فيما أقول فانى مستعد ان أقوم بعمل انتحارى كقيادة طوربيد أو أن أسقط بطائرة أو مظلة محاطة بالديناميت على أية بارجة أو هدف مهم من أهداف العدو . وهذا اقرار منى بذلك .
والسلام عليكم ورحمه الله وبركاته .
ولم يرد عبدالناصر على خطابى . .
ولم أجد ما اشارك به فى المعركة سوى التبرع بمبلغ بسيط هو خمسة جنيهات ، هو كل رصيدى فى البنك ، فارسلت الشيك رقم ٧١٥٨٤٧ على البنك الأهلى باسم عبدالحكيم عامر ، لكننى فوجئت بالشيك يعود الى ومعه خطاب من أحمد أنور يسبنى فيه ، ويسفه دورى فى الثورة ويؤكد انها ليست فى حاجة لأموالى .
قال أحمد أنور :
« إن القوات المسلحة لم تكن ولن تكون بعون الله وبهمة رجالها وبالروح التى بعثتها الثورة من العزة والكرامة التى خلقها زعيمنا فى نفس كل فرد من أفراد الأمة فى حاجة الى مثل هذا المبلغ » .
« ان نفسى لتبرأ ان تحيط القائد العام علما بتبرعك حتى لا أبعث فى نفسه اشمئزازا من تصرف رجل انتسب الى الجندية وانتسب الى مصر فى يوم من الأيام » .

« لذلك أرى ـ رحمة بك ـ أن أرد لك هذه القروش فمثلك أولى بها فربما تعوضك عن بعض ما فاتك من البذل والعطاء الذى يبذله أبطالنا اليوم » .
كان ذلك فى ١٩٥٦/١١/٢١ .
وواضح أن أحمد أنور تعمد اهانتى ليرضى قادته الذين ارسل لهم صورا من هذا الخطاب الذى كان فى الحقيقة موجه لهم أكثر مما هو موجه لى .
وليس صحيحا ما جاء فى هذا الخطاب . .
وقد رددت عليه بعد يومين بخطاب مهذب لعله يشعر بالكسوف . .
فى ١٩٥٦/١١/٢٣ كتبت له :

● صورة للخطاب فى الوثائق ص ٣٨٠ .

السيد القائمقام أحمد أنور

بعد التحية ارجو ان تطلعوا على حسابى فى البنك فهو حوالى الخمسة والسبعين جنيها منها ٦٤ جنيه رصيد شيكات مسحوبة منى لم تصرف بعد (ومن ضمنها ٥٠ جنيها تبرعات لمشروعات قومية) وآسف انكم ثرتم وبنيتم خطابكم على ثروة وهمية لم يدخل فى ذمتى منها مليما وقد شرحت للسيد محمود (عزت) تفاصيل كل شيء وأنا لم أتبرع إلا ارضاء لضميرى ولن يكون هذا التبرع هو الأخير .

« فإن مع العسر يسرا ، ان مع العسر يسرا » .

وسل أخى على نجيب لتعرف منه انى اصبحت مدينا له بما لا يقل عن المائتى جنيه حيث اضطررت أن أقترض لأكمل المبلغ المطلوب لدراسة ابنى فاروق بالمانيا .

لقد أبقيت المبلغ حتى أستطيع أن أضيف إليه ما يرفع قيمته الى ما يتناسب مع ثرائى العريض ثم أتبرع به .

والسلام عليكم ورحمة الله .

ولم تمر اسابيع قليلة حتى فوجىء أحمد أنور بخطابى المؤرخ برقم ق . م / استبدال /٢ / ٥٧ الى السيد قائد عام القوات المسلحة ووزير الحربية الذى اطلب فيه استبدال ٢٠ جنيها من معاشى ، لأنى فى حاجة الى مبلغ لاجراء عملية جراحية فى عظام الرأس لأحد ابنائى ولتغطية نفقات تعليم أولادى ، خاصة وأن صافى معاشى لم يزيد عن ١٧٦ جنيها .

وعرف أحمد أنور بالطبع الى أى مدى كان متجنيا على . . لكنه لم يكلف نفسه بالطبع الاعتذار ولو شفهيا .

لقد كانت سنوات المرج الاولى أشد سنوات عمرى قسوة . .

وضاعف من احساسى بالقسوة أن البلد كلها كانت تتجه بسرعة خرافية الى حكم الفرد والى تمركز السلطة فى يد جمال عبدالناصر دون أن يجرؤ أحد أن يقول له : لا .

فبعد أن كان كمال الدين حسين يشغل تسعة مناصب خرج من السلطة بلا عمل واحد ، وكان لا يزال تحت الخمسين .

وخرج جمال سالم . .

ثم حسن ابراهيم . .

فعبد اللطيف البغدادى . .

● صورة من الخطاب فى الوثائق ص ٣٨١ .

● صورة خطاب طلب استبدال المعاش ص ٣٨٢ .

وزكريا محيى الدين . .
واغتيل عبد الحكيم عامر او انتحر . . الله اعلم . .
وذاق الذين ساندوا الديكتاتورية من نفس الشراب الذى ساقوه للآخرين . .
انهم لم يسكتوا على الخطأ فقط وانما ساندوه ايضا . . ودافعوا عنه . . وبرروه . .
وفى كثير من الاحيان اسهموا فيه . . ومع ذلك عندما انتهى دورهم اطيح بهم . .
واصبحوا مثلى ، عليهم ان يخرجوا ليقولوا بصدق ما عاشوا . .

وليس لهم العذر الذى حاولو اشاعته ، وهو قلة خبرتهم السياسية ، وكثرة اعداء الثورة ، وطبيعة النظام العسكرى الذى خرجوا منه والذى يؤمن بتنفيذ الامر مهما كان غير منطقى او غير سليم . .

فإذا كانوا يعرفون ذلك ، فلماذا لم يعودوا الى الجيش ويتركوا السياسة لأصحابها .

فالسياسة تختلف عن العسكرية ، فهى تفاعل حى وحر لآراء الجماهير ومعتقداتها . . وهى أن تمشى وراء الجماهير لا أن تجعلها تمشى وراءك . .

ولو كانو قد قرأوا قليلا فى التاريخ او فى السياسة ، لعرفوا ان عبد الناصر نفذ بنصائح مكيافللى فى « الأمير » خاصة تلك التى تنصح الحاكم بالتخلص من كل الذين ساعدوه فى الوصول الى الحكم واستبدالهم بآخرين يدينون له بالطاعة والولاء . . فبعد ازمة مارس تخلص عبد الناصر تدريجيا من رفاقه القدامى ، وجاء بجدد لم يكن لهم هم سوى ارضائه .

وبعد ست سنوات داخل معتقل المرج ، سمح لى ان اتحرك فى بعض الزيارات العائلية او زيارات المجاملات ، على ان يرافقنى بعض ضباط المخابرات ويذهبون معى الى كل مكان اذهب اليه .

وكان ان ذهبت الى جمال سالم لتعزيته فى وفاة شقيقة صلاح سالم الذى فوجىء بحضورى ، وتساءل مندهشا :

- هل انت الرئيس محمد نجيب ؟
وهززت رأسى . .
قال :
- هل تعزى فى صلاح وتعزينى بعد كل ما فعلناه بك ؟

قلت له :
ـ الواجب يا جمال .
فبكى .
ورحت لزيارة جمال سالم مرة أخرى عندما سقط بمرضه . . واصبح قريبا من الموت وعلى بعد خطوات من لقاء ربه . . وأجهش جمال سالم فى البكاء عندما رآنى . . وامام الحرس الخاص بى ، قال لى :
ـ سامحنى يا نجيب فقد دفعنا الشيطان الرجيم ضدك .
وسرحت قليلا . .
ليت المشكلة فى أن اسامحه . .
واذا سامحته انا فهل يسامحه الشعب ويسامحه التاريخ . .
ابدا . .
لن يسامحهم ضحاياهم . . ولن يسامحهم التاريخ . .
اللهم لاشماتة . .
ولكن . . للحقيقة التى عاشتها الاجيال المعاصرة اقرر ان الدوائر دارت عليهم ، وخرجوا من دائرة السلطة الى دائرة الوحدة . . ومن النفوذ الى النسيان . . ومن الضوء الى الظل . . وانتهى الأمر بهم اما الى الاستقالة واما الى الانتحار .
اللهم لاشماتة . .
لكن علينا ان نستوعب الدرس وان نحفظه ولانفرط فى التجربة التى عشناها ودفعنا فيها ثمنا باهظا . .
انى اعتقد احيانا ان حظى كان افضل من حظ باقى أعضاء مجلس الثورة . . فذنوبهم كانت اكثر من ذنوبى . . وخطاياهم كانت أشد . .
وما فعلته لم يجرؤوا أن يفعلوه . .
لقد قنعت باقامتى فى معتقل المرج . . وتآلفت مع كل ما فيها . . قرأت الكثير من الكثير من الكتب فى كل فروع المعرفة من الطب الى التاريخ . . ومن علم الكف الى علم الفراسة . . ومن علوم الاحياء الى الجيولوجيا . . كل فروع المعرفة بلا استثناء . .
وتعلمت لغات أجنبية كنت لا أعرفها . . حتى اللغة العبرية درستها . . وانشغلت بتربية القطط والكلاب . . وانا اعتبر القطط والكلاب اكثر وفاء من

البشر . . حتى انني نجحت معها في تغيير طبيعتها . . انني لازلت احتفظ بصورة نادرة لكلبة من كلابي ، ترقد على جنبها وترضع منها قطة فقدت امها . . ان هذه الصورة دليل على ان العداء التقليدي والطبيعي بين الحيوانات يمكن ان يذوب ويتلاشى بالحب والرعاية . . وهذه الصورة دليل على ان الحيوانات اكثر ليونة ورقة في التخلص من شراستها ، من البشر .

انني لم انجح في تطبيق شعار : الاتحاد والنظام والعمل الذي رفعته بعد الثورة مباشرة الاعلى القطط والكلاب التي أربيها نجحت في الاتحاد بين القطط والكلاب . . وفرضت النظام عليها . الاكل بمواعيد والنوم بمواعيد . . نجحت في ان يكون العمل هدفا لها . . كل منها حسب الوظيفة المناسبة . . الكلاب للحراسة . . والقطط لتنظيف البيت من الفئران والحشرات .

لقد كان هؤلاء الاصدقاء الأوفياء سلوى وحدتي في سنوات الوحدة . تلك السنوات المرة التي وصلت فيها درجة الافتراء الى حد اشاعة خبر وفاتي . . وقد سمعت هذا الخبر بأذني من اذاعات العالم . . وقرأته بعيني في كتاب ضباط الجيش في السياسة والمجتمع والذي وضعه كاتب إسرائيلي يدعى اليزير بيير . . قال اليزير بيير :

« ان محمد نجيب توفي عام ١٩٦٦ ».

ولا اعتقد ان احدا في العالم قصد اذاعة او كتابة مثل هذه الاخبار عن عمد او عن مقصد ، كل ما في الأمر ان العزلة الصارمة التي فرضت على جعلت مثل هذة الاخبار ، التي كانت بلا تكذيب في اغلب الاحيان ، امرا طبيعيا .

وبعد كل مرة كان ينتشر مثل هذا الخبر في العالم ، كانت برقيات التعزية تصل الى المرج ، والطريف انني كنت اقرأها بنفسي .

ان كل المحاولات التي جرت لينساني العالم قد ذهبت هباء . . .

وليس أدل على ذلك من تلك القصة البسيطة التي شهد تفاصيلها صديق صحفي شاب . . كان ذلك الصديق في زيارتي عندما جاء لي خطاب من الدنمارك . . ولأن عيني كانتا تؤلمني في ذلك اليوم ، طلبت منه ان يفتح الخطاب ويقرأه . . وقرأ الصحفي الشاب الخطاب وكان من طالب صغير يهوى جمع توقيعات الرؤساء والقاده والزعماء ، ويطلب ان يضم توقيعي لمجموعته ، وارسل بجانب خطابه الرقيق ورقة بيضاء مقواة لأوقع عليها ومظروف يحمل عنوانه وشهادة بريدية تفيد بأن رسوم الرد خالصة .

كان عمر التلميذ ١٧ سنة . .

وتعجب الصحفى الشاب . .
وقال :
ـ كيف يعرفونك فى الدنمارك ولانعرفك فى مصر . . كيف يعرفك صغار العالم ولايعرفك اغلب الكبار فى مصر ؟
وقال :
ـ اننى بهذه المناسبة اذكر ان احد السفراء الذين اعرفهم حكى لى انه عندما كان يقدم اوراق اعتماده لرئيس جمهورية فنزويلا سأله الرجل عنك وقال له : نحن نعرف مصر الفرعونية ونعرف محمد نجيب وجمال عبد الناصر كرر الرجل نفس الكلام للسفير وهو يودعه عائدا لبلاده .
وقال :
ـ هذا قدرك ياسيدى . . ان يذكرك العالم ونحاول ان ننساك نحن ، ولكن لا احد يستطيع ان يقف امام قطار التاريخ . . صدقنى لا احد . .
وضحكت . . فأنا اعرف ذلك جيدا . .
واعرف ان ألاباطيل مثل السحب سرعان ما تنقشع .
والدليل على ذلك ، ما جرى بينى وبين محمد حسنين هيكل . .
ادعى هيكل على بالباطل ، فى كتابه ناصر والعالم أننى تسلمت من المخابرات الامريكية ثلاثة ملايين دولار ، هى التى بنى بها برج القاهرة . . قال هيكل بالنص :
« وذات يوم كان عبد الناصر واعضاء مجلس قيادة الثورة يبحثون مسألة بناء برج لاسلكى للاتصالات العالمية التى تقوم بها وزارة الخارجية وادارة المخابرات ، وقيل لعبد الناصر انه سبق وان تم شراء بعض المعدات ولما احتج بأنه ليست هناك اموال مرصودة فى الميزانية لهذا الأمر قيل له إن المال جاء من اعتماد امريكى خاص ، ودهش عبد الناصر إذ كانت هذه اول مرة يسمع فيها بوجود اى اعتماد خاص وقيل له ان وكالة المخابرات المركزية وضعت تحت تصرف اللواء محمد نجيب ثلاثة ملايين دولار » .

« وكان المبلغ قد تم تسليمه بواسطة عميل امريكى فى حقيبة ضخمة عبئت بقطع نقدية من فئة المائة دولار ، وسلمت الحقيبة فى الواقع الى ضابط فى المخابرات المصرية كان يعمل كضابط اتصال بين المخابرات المصرية ووكالة

المخابرات الامريكية وتمت عملية الدفع والاستلام فى بيت العميل الامريكى فى ضاحية المعادى الانيقة » .

« واستشاط عبدالناصر غضبا عندما سمع ذلك وتوجه بالسيارة فورا الى مجلس الوزراء وطلب تفسيرا من محمد نجيب الذى كان آنذاك رئيسا للوزراء .
« واصر نجيب على أنه فهم انه ليس للمخابرات الامريكية علاقة بذلك المبلغ وأنه مرسل من الرئيس ايزنهاور الذى خصص اعتمادات مالية لبعض رؤساء الدول ليتمكنوا من تجاوز مخصصاتهم المقيدة بالميزانية من اجل الدفاع عن انفسهم وعن بلادهم ضد الشيوعية »

« وهنا طلب عبد الناصر ايداع المال فى خزينة إدارة المخابرات وامر بعدم صرف اى شىء منه الا بإذن من مجلس قيادة الثورة .
وفى النهاية بنى البرج وكان مخططا له فى الاصل ان يكون برجا بسيطا يعلوه هوائى لاسلكى وشبكة اسلاك تنحدر الى الأسفل عبر وسطة لكن جمال عبد الناصر قرر ان يبنيه كنصب يشهد على حماقة وكالة المخابرات الامريكية فاستخدم الأموال الامريكية لبناء البرج الفخم المزركش وبنى المطعم الدوار الذى فى قمته والذى يطل اليوم على منظر القاهرة كلها .

وقد لقى البرج انتقادا شديدا عند تشييده لأنه لم يكن فى وسع واحد ان يفهم سبب اهدار المال عليه . واذا كان قسم المواصلات فى مبنى البرج جديا وجوهريا فقد كانت الاعتمادات المتاحة معقولة ولم يكن هناك بأس من بناء المطعم ومن الهندسة الباذخة وبشكل ما فإن ذلك كان اهانة الى وكالة المخابرات الامريكية .
وقد غضب عبد الناصر من الامريكيين غضبا شديدا بسبب هذه الحادثة التى اعتبرها محاولة للافساد .
قرأت ما كتبه هيكل وضحكت . .
الى هذا الحد يمكن ان تصل الفبركة بكاتب . .
الى حد التلفيق والافتراء . .

لكنى ادركت للوهلة الاولى من قراءة هذة الرواية الباطلة ان الكذب لا أقدام له . . فأنا لم تكن لى صله بهذا الموضوع لسبب بسيط هو انى كنت معتقلا يوم وصل هذا المبلغ الى مصر .

وقد شرحت من قبل علاقتى بالامريكان وعلاقة عبد الناصر بهم .

يضاف الى ذلك ما نشره رجل المخابرات الامريكى الشهير « مايلز كوبلاند » فى كتابه « لعبة الامم » والذى قال فيه بصراحة انه سلم المبلغ لرجل المخابرات المصرى حسن التهامى ، صديق عبد الناصر المقرب ، واحد الذين يعتمد عليهم فى اتصالاته السرية ، والذى اشترك معه فى محاولة اغتيال حسين سرى عامر واشترك معه فى كل الاتصالات التى جرت بين الامريكان والثورة .

واردت ان القن هيكل درسا علنيا يوجعه . .

رفعت دعوى ضده فى نوفمبر ١٩٧٢ امام محكمة جنايات الجيزة .

وعرف هيكل بالدعوى . . وسارع بالاتصال بالمحامى الذى تولى رفع الدعوى وهو الاستاذ رفعت الشهاوى ، وطلب منه ان يتوسط عندى لسحب الدعوى . .

قلت :

ـ على شرط ان ينشر بيانا فى الاهرام والديلى تليجراف والنهار اللبنانية يعتذر فيه عما نشره ويكذبه .

ووافق هيكل . .

ونشر البيان التالى :

« كان الاهرام قد بدأ فى ١٧ سبتمبر ١٩٧١ وعلى مدى عدة اسابيع فى نشر فصول من الكتاب الذى صدر بعد ذلك لمحمد حسنين هيكل عن عبد الناصر والعالم والذى ترجم اخيرا الى اللغة العربية .

وفى اول هذة الفصول وهو الخاص (بعبدالناصر ودالاس) ومحاولات الولايات المتحدة احتواء الثورة المصرية وغوايتها ، ذكرت واقعة بناء برج القاهرة من حصيلة مبلغ ثلاثة ملايين دولار كانت المخابرات الامريكية قد ارسلته ليوضع تحت تصرف رئيس الدولة فى مصر وقتئذ .

وقد جاء فى رواية هذه الواقعة فى الكتاب المنشور ان هذا المبلغ كان قد وضع تحت تصرف اللواء محمد نجيب وانه دفع من الاعتمادات التى يخصصها الرئيس ايزنهاور لبعض رؤساء الدول ليتمكنوا من تجاوز مخصصاتهم المقيدة بالميزانية من اجل الدفاع عن انفسهم وعن بلادهم ضد الشيوعية .

وبقدر حرص الأهرام والأستاذ محمد حسنين هيكل على رواية التاريخ المعززة بالوثائق والأسانيد ، بقدر حرصه على عدم المساس بكرامة الشخصيات التى تتعلق بها هذه الوقائع .

وقد جاءنا من اللواء محمد نجيب انه لم يعلم عن هذه الواقعة فى حينها ، ولم يتم اى اتصال بشأنها .

ويريد محمد حسنين هيكل ان يؤكد ان ما نشر عن اللواء محمد نجيب فى هذه الواقعة لم يقصد به المساس به وبالدور الوطنى الذى لعبه فى بداية الثورة . والذى يملك التاريخ وحده الحكم عليه .

فواضح من سياق الخبر أن الولايات المتحدة لم تضع هذا الاعتماد تحت تصرف اللواء محمد نجيب ولكنها وضعته تحت تصرف السلطة المصرية تنفيذا لسياستها حينذاك فى محاولة احتواء الثورة المصرية .

وينشر الاهرام هذا الايضاح دفعا لأى لبس وتأكيدا لمعنى يحرص عليه وهو انه فيما ينشره فى وقائع التاريخ المعاصر يتوخى الحقيقة وصدق الاعتماد .
كان ذلك فى اهرام الجمعة ٢ يونيو ١٩٧٢ .

وواضح من البيان أنه يكذب ولا يكذب . . وصاحبه يلف ويدور كعادته . .
وأصررت ان اذهب الى محكمة جنايات الجيزة لاحضر المحاكمة بنفسى . .
فقال لى المحامى :
ـ هذا لا يجوز . . فيجب الا تقف امام قضاة كانوا يصدرون احكامهم باسمك باعتبارك رئيس جمهورية .
فقلت له :
ـ لا . . ان حضورى المحكمة ووقوفى امام القضاء هو تعبير عن احترامى لهم . .
ثم اننى اريد ان اخاطب الشعب المصرى وأسجل كلمتى للتاريخ فى سجلات العدالة المصرية التى حرمت منها سنوات طويلة .

لقد رويت هذه القصة من قبل . . واحب ان ارويها مرة اخرى ، حتى يتعظ كل من يتصور نفسه قادرا على تزوير التاريخ . . ففى المحكمة وامام منصة القضاء ، قلت :

وحيث الذى يعنينى فى مقام هذه الدعوى هو ان يثبت فى محضر الجلسة ان الواقعة موضوع الادعاء غير صحيحة على الاطلاق وأننى لم اتقاضى اية مبالغ تتصل بهذا الموضوع من قريب أو بعيد ، فضلا عن أننى لم يصل الى علمى أى شىء بأية صورة من الصور طيلة مدة رئاستى يتعلق بهذا الموضوع عليه

ويشرفني بهذه المناسبة ان يثبت فى محضر الجلسة انى افخر بانني رجل فقير لا يملك من حطام هذه الدنيا شيئا ، فلست أملك مالا او عقارا ، اللهم الا بعض جنيهات أتقاضاها كمعاش شهرى ، ولم اكن طيلة حياتى من الباحثين عن المال او الحريصين على جمعه ، وتشهد ملفات الدولة أننى عندما وليت أمر هذه الأمة رئيسا للجمهورية تنازلت عن نصف مرتبى للدولة .

وأخيرا فإننى أرجو ان يكون واضحا من هذا البيان أننى لا اقصد الاساءة الى اى انسان او التشهير باى شخص ولكننى فقط ارجو ان تثبت هذة الحقائق للتاريخ تأكيدا لطهارة ذمتى ونقاء صفحتى حتى اورثها لابنائى ولأبناء مصر الغالية بيضاء كما كانت دائما طيلة حياتى التى قدمتها ضابطا مقاتلا مازال جسده يحمل أثار الرصاص وقائدا ثائرا محررا لبلاده من طغيان كان يجثم فوق صدرها ورئيسا شريفا أمينا أدى واجبه على أشرف واكمل صورة .

حمى الله وطنى من غائلات الاعداء وحرره من عدوان المعتدين ليعود مرة اخرى حرا عزيز الجانب .

وتنازلت عن الدعوى . .

ورفضت التعويض الضخم الذى كان يمكن أن أحصل عليه واعتبرت ادانة هيكل لنفسه اكبر تعويض لى ، رغم اننى كما قلت ، لا املك سوى معاشى . . وقد كان معاشى فى بداية اعتقالى ١٠٠ جنيه . . رفع بعد ذلك الى ٢٠٠ جنيه . . وأمر الرئيس السادات بزيادته ١٠٠ جنيه اخرى . . لكن . . كان اهم من زيادة معاشى ، الذى لم يكن يكفى مصاريف الحياة والعلاج ، قرار الرئيس السادات برفع القيود عنى .

فبعد ان انتهى عصر الارهاب ، قال لى السادات :

ـ انت حر طليق !

ولم اصدق نفسى . . هل استطيع ان اخرج وادخل بلا حراسة . . هل استطيع ان اتكلم فى التليفون بلا تصنيت . . هل استطيع ان استقبل الناس بلا رقيب !

لم اصدق ذلك بسهولة . .

انظر الوثائق كشف حساب البنك الأهلى المصرى ص ٣٨٣ .

فالسجين فى حاجة لبعض الوقت ليتعود على سجنه ، وفى حاجة لبعض الوقت ليعود الى حريته . .
وانا لم اكن سجينا عاديا . . كنت سجينا يحصون انفاسه . . ويتصنتون على كلماته . . ويزرعون الميكرفونات والعدسات فى حجرة معيشته . . وكنت اخشى أن اقترب من أحد حتى لا يختفى . . واتحاشى زيارة الاهل والاصدقاء حتى لا يتعكر صفو حياتهم . . وابتعد عن الاماكن العامة حتى لا يلتف الناس حولى ، فيذهبون وراء الشمس .
لكن . . بعد فترة . . وبالتدريج . . عدت الى حريتى . . وعدت الى الناس . .
وعدت الى الحياة العامة . .
وياليتنى ماعدت . .

فالناس جميعا كان فى حلقها مرارة من الهزيمة والاحتلال . . وحديثهم كل شكوى وألم ويأس من طرد المحتل الأسرائيلى . . وبجانب هذه الاحاسيس ، كانت هناك أنات ضحايا الثورة . . الذين خرجوا من السجون والمعتقلات . . ضحايا القهر والتلفيق والتعذيب . . وحتى الذين لم يدخلوا السجون ولم يجربوا المعتقلات ، ولم يذوقوا التعذيب والهوان كانوا يشعرون بالخوف ، ويتحسبون الخطى والكلمات . .
وعرفت ساعتها كم كانت جريمة الثورة فى حق الانسان المصرى بشعة . .
وعرفت ساعتها اى مستنقع القينا فيه الشعب المصرى . .
فقد حريته . . فقد كرامته . . فقد ارضه . . وتضاعفة متاعبه . . المجارى طفحت . . المياه شحت . . الازمات اشتعلت . . الاخلاق انعدمت . . والانسان ضاع . .
أين الاهداف العظيمة والتى نادت بها الثورة !؟
أين كرامة الانسان الذى قال له جمال عبدالناصر أرفع رأسك يا أخى ؟!
لقد قمنا بثورة . . فإذا بهم يحولونها إلى عورة !
قمنا من اجل الناس . . فإذا بهم يعملون من أجل انفسهم .
قمنا من اجل رفع مستوى المعيشة . . فاءذا بهم يعملون على خفض مستوى كرامة البشر .

وإذا كان الزمن لا يتوقف والشعوب لا تنتهى والمستقبل لا يعود إلى الوراء ، وإذا كان الشعب قد حرر بلاده وارضه من اليهود ، فأنه لا أمل فى ان يسترد كل ما فقده ، ولا أمل فى ان يتقدم ، سوى بالديمقراطية .
الحرية قبل الخبز احيانا .
الديمقراطية قبل العدالة الاجتماعية احيانا .

وقد دفعت أنا ثمن هذه الكلمة الخالدة « الديمقراطية » ودفع الشعب ثمنها ايضا . . ولكننى الان لا استطيع ان افعل المزيد . . فقد هدتنى الشيخوخة واقعدتنى ، وحاصرتنى امراضها ، وأصبح على ان انتظر لقاء ربى بين لحظة واخرى . . لكن . . الشعوب التى تعوض شيخوختها بشبابها وماضيها بمستقبلها ، تملك الفرصة الذهبية فى تغيير واقعها السياسى والاقتصادى والاجتماعى .
ولايبق ان اكرر ما قوله دائما وابدا . .

ربنا لاتؤاخذنا ان نسينا او اخطانا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا * ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين .